فصل

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصومًا لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى عنه .

ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى ، وتكون من الشيطان ، وإن لم يخرج عن ولاية الله تعالى ، فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، فقال تعالى : [**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**] [البقرة : ٢٨٥ ـ ٢٨٦] .

وقد ثبت في (الصحيح) أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء ، وقال : قد فعلت .

ففي (صحيح مسلم) عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : لما نزلت هذه الآية [**وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير**] [

This file was downloaded from QuranicThought.com

البقرة : ٢٨٤] ، قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك ، شيء أشد منه ، فقال النبي ε : ((قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا)) ، قال : فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى : [**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**] [البقرة : ٢٨٦] ، إلى قوله : [**أو أخطأنا**] [البقرة : ٢٦٨] ، قال الله : قد فعلت ، [**ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا**] [البقرة : ٢٨٦] ، قال : قد فعلت ، [**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين**] ، قال : قد فعلت .

وقال الله تعالى : [**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم**] [الأحزاب : ٥] .

وثبت في (الصحيحين) عن النبي ε من حديث أبي هريرة ، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعا ، أنه قال : ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر)) .

فلم يؤثم المجتهد المخطئ ، بل جعل له أجرا على اجتهاده ، وجعل خطأه مغفورا له ، ولكن المجتهد المصيب له أجران ، فهو أفضل منه .

ولهذا لما كان ولي الله يجوز له يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله ، إلا أن يكون نبيا .

بل ولا يجوز لولي الله أن يتعمد على ما يلقى إليه في قلبه ، إلا أن يكون موافقا ، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق ، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ε فإن وافقه قبله ، وإن خالفه لم يقبله ، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه (٣٩) .

This file was downloaded from QuranicThought.com

(٣٩) هذا التفصيل أصل في مسألة الولاية ، وهو أنه ليس من شرط ولي الله جل وعلا أنه لا يخطئ البتة أو لا يغلط أبدا أو لا يكون عنده التباس في بعض المسائل المهمة في العقيدة أو في الشريعة أو لا يكون عنده نقص في العمل في بعض الأشياء ، وهذا ليس من شرط ولي الله جل وعلا أنم يكون كاملا ، إذ لو شرط هذا لقيل أن الولي في مرتبة النبي ؛ لأن النبي هو الذي لا يغلط وهو الذي لا ينقص عن الكمال في مسألة الطاعة ولا يلتبس عليه شيء .

أما أولياء الله جل وعلا في هذه الأمة ، وفي الأمم فهم أكمل أقوامهم ، وأكمل اتباع الأنبياء ، وقد يحصل لهم غلط والتباس واشتباه ، وبعض القصور في العمل ولا ينفي ذلك أن يكونوا أولياء لله جل وعلا .

ولكن من كان أتم في العلم والعمل كان أكثر وأعظم ؛ لأن الولاية تتبعض كما ذكرنا في الدروس الماضية .

ومن المهم في هذا الباب ، أن الولي ـ كما ذكر ـ قد يحصل له اشتباه فيما يحصل من أنواع الكرامات أو الخوارق ؛ فإنه يأتيه خارق قد يحصل له اشتباه بأن يظنه كرامة ، وهذا لا يقدح في أن يكون وليا ، ولو كان هذا الخارق شيطانيا ؛ لأن هذا راجع إلى العلم .

فالتفرقة ما بين العرض الشيطاني والعرض الرحماني ، أو الكرامة الرحمانية والخارق الشيطاني ، هذا يحتاج إلى العلم في التفريق فيما بين هذا وهذا .

فإذا لم يفرق كان ذلك بسبب قصور العلم ، وقصور العلم لا ينفي أن يكون وليا لله جل وعلا في مثل هذا ؛ لأن الالتباس وقع على كثير من الصفوة في مثل هذه المسائل ، فيقع لهم أشياء صارت من خوارق الشيطان وقد يكون

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

ضعيفا عن العلم بها .

القاضي يكون وليا لله تعالى ، وقد يخطئ في اجتهاده ، فيقتل خطأ ، لكنه حين اجتهد استفرغ وسعه أو يعطي مالا لغير مستحقه في نفس الأمر ، لكن حين أعطى أستفرغ في الاجتهاد ، وبذل طاقته .

والله جل وعلا رفع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان ، وثبت كما نقل شيخ الإسلام ، في (الصحيح) أنه عليه الصلاة والسلام قال : ((إذا حكم الحاكم فأصاب فله أجران أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، وإن أخطأ فله أجر واحد)) ، وهو أجر الاجتهاد وبذل الوسع في معرفة حكم الشرع في هذه المسألة .

فهذا يعني أن من رؤى عليه نقص في العلم والعمل مما لا يقوده على معصية فغنه لا ينبغي أن يكون وليا لله جل وعلا ، وقد يكون عنده قصور في السنة في بعض المسائل أو قصور في العلم في بعض المسائل ، ويكون عنده من الخير والعبادة ، وتحقيق الإيمان والتقوى ما به يكون وليا لله جل وعلا ، والأولياء مراتب ودرجات ليسوا مرتبة واحدة ، إما أن تحصل وإما ألا تحصل بل هم متفاوتون في ذلك ، كما قال جل وعلا ، هم درجات عند الله . ا هـ .

This file was downloaded from QuranicThought.com

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف : طرفان ووسط ، فمنهم من إذا اعتقد في شخص انه ولي لله ، وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله .

ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق الشرع ، أخرجه عن ولاية الله بالكلية ، وإن كان مجتهدا مخطئا .

وخيار الأمور أوساطها، وهو أن لا يجعل معصوما ولا مأثوما ، إذا كان مجتهدا مخطئا فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده .(٤٠)

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين ، لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ، ويقول : هذا خالف الشرع .

---

(٤٠) المقصود فيما يسوغه فيه الاجتهاد ، أما الاجتهاد في المسائل المجمع عليها أو في العقيدة ـ عقيدة أهل السنة ـ أو ما أشبه ذلك فهذه لا يسوغ فيها الاجتهاد .

ومن خالف فيما ليس مجالا للاجتهاد فهو ملوم ومؤثم .

أما المسائل التي يقبل فيها الاجتهاد ، فهذا نعم لا يلام صاحبها ، بل يشكر ولا يؤثم إذا أخطأ .

فيقال : أخطأ وأراد الخير ، حيث اجتهد فيما يسوغ فه الاجتهاد .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقد ثبت في (الصحيحين) عن النبي ε أنه قال : ((قد كان في الأمم قبلكم [٤١] محدثون ، فغن يكن في أمتي أحد فعمر منهم)) .

وروي الترمذي وغيره عن لنبي ε ، أنه قال : ((لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر)) [ليس هو في الترمذي ، وإنما أخرجه ابن عدي ، وفي سنده زكريا ابن يحيي الوقار ، قال ابن عدي : يضع الحديث ، وللحديث شواهد كلها ضعيفة ، والذي جاء في الترمذي : ((لو كان نبي بعدي لكان عمر)) ، وهو حديث حسن] .

وفي حديث آخر : ((إن الله ضرب الحق على لسان عمر و قلبه)) [رواه الترمذي بلفظ : ((إن الله الحق على لسان عمر وقلبه)) ، وقال : حديث حسن ، وهو كما قال)) .

وفيه : ((لو كان بعدي نبي لكان عمر)) [رواه الترمذي ، وهو حديث حسن] .

---

(٤١) محدَّث : يعني ملهم فيلقى الصواب في روعه فيدركه يأتيه مثل الشيء يغشاه يدرك الصواب ، وعبر عنه بلفظ المحدَّث ؛ لأن صاحبه يشعر بأنه يحدث بهذا الصواب ، فيحدث كأن أحدا يكلمه في داخله ، ويقول : كذا وكذا من الكلام في المسألة ، مثل ما حصل لعمر ، رضي الله عنه ، فأنه ثبت عن النبي ε أنه قال : ((إن الله ألقى الحق على لسان عمر وقلبه)) ، وعمر رضي الله عنه حُدِّث بحال سارية فتكلم به ، يا سارية الجبل ، الجبل ، يعني الزم الجبل حدث بحاله فأوصى بهذا ،

وكُشِف له حجاب البصر ، فرأى ما يفعل سارية فأوصاه .فإذًا التحديث راجع على علم سمعي .

وقد ذكرنا لكم أن الكرامات منها ما يحصل من جهة العمل ، ومنها ما يحصل

This file was downloaded from QuranicThought.com

. . . . . .

من جهة السمع ، ومنها ما يحصل من جهة البصر ، ومنها ما يحصل من جهة القدرة ، فهي أربعة أقسام :

كرامات علمية ، وكرامات سمعية ، وكرامات بصرية ، وكرامات قدرية .

فالعلمية : مثل ما حصل لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، فإنه قال لامرأته أن في بطنها أنثى ، ويدخل فيه قول عمر : يا سارية الجبل الجبل .

والسمعية : مثل سماع سارية لكلام عمر ، رضي الله عنه ، فسمع كلام عمر ، فهذا كرامة من جهة السمع .

ومن جهة البصر : يرى مالا يراه غيره ، أو يحجب عنه ما يرى بالبصر ، مثل أن الشرط دخلوا على الحسن يريدونه ، فبحثوا في البيت ، فبحثوا فلم يجدوا أحدا ، فخرجوا ، وهو بفناء الدار جالس يسبح أمامهم ، فحجب عنهم أن يبصروه ، هذا من جهة الكرامات البصرية .

والكرامات القدرية : من جهة القدرة ، أن يقدر على مالا يقدر غيره عليه ، فيقدر على أن يمشي على الماء بإقدار الله جل وعلا وإكرامه له ، يقدر على أن يحي له الميت ، مثل ما حصل للصحابي مع فرسه أو حصلت له من جهة القدرة أنه يرفع فلا يعرف له مكان أو يدخل النار فلا يضره ذلك ، وأشباه هذا

إذًا هي أقسام يمكن أن ترجع أنواع الكرامة إلى واحد من هذه الأقسام ، وكل قسم منها منقسم إلى قسمين : لازم ومتعدي ، وحصول اللازم والمتعدي لمن حصلت له لا يدل على قوة إيمانه ولا قوة إيمان من حصلت لهم أو فيهم ؛ لأنه قد يكون محتاجا إلى ذلك ، فيثبت بالكرامة ، قد يكون الناس محتاجين فيثبتون بالكرامة إذا حصلت لبعضهم . ا هـ .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وكان علي ابن أبي طالب ، رضي الله عنه يقول : ما كنا نبعد أن السكينة (٤٢) تنطق على لسان عمر ، ثبت هذا من رواية الشعبي [رواه البيهقي في (دلائل النبوة)] ، وقال ابن عمر : ما كان عمر يقول في شيء إني أراه كذا إلا كان كما يقول ، وعن قيس ابن طارق قال : كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسان الملك ن وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة .

---

(٤٢) السكينة ، اسم لما يسكن إليه من الأقوال والاعتقادات والأعمال ، ويسكن إليه ؛ لأنه الحق ، كما قال تعالى في الاعتقادات : **[هو الذي أنزل في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم]** ، فقوله (ليزدادوا إيمانا) دل على أن السكينة حصل بها زيادة إيمان لهم ، فهي نوع اعتقاد نتج عنه الطمأنينة والراحة ، كذلك ما يسكن إليه من الحق في الأقوال ، يقال له : سكينة وما يسكن إليه من الأعمال للحق ، يقال له سكينة ، مثل التابوت مثلا قال : **[فيه سكينة من ربكم وبقية ...]** .

وهنا : (ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر) ، السكينة تنطق ، هذه سكينة قولية ، ومن هذا الموافقات ، وافق حكم عمر حكم الرب جل وعلا في مواضع القرآن . ا هـ .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، أنها تتجلى للمطيعين ، هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم ، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات (٤٣) ومكاشفات ، وأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنهما ، فإن خير هذه الأمة بعد نبيهم أبو بكر وعمر .

[أخرج البخاري عن ابن عمر فقال : كنا نخير الناس في زمن النبي ε ، فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ، رضي الله عنهم ، وأخرج البخاري وأبو داود عن محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبي رضي الله عنه : يا أبت أي الناس خير بعد الرسول ، رسول الله ε ؟ ، قال : أبو بكر ، قلت : ثم أي ؟ قال : عمر ، وخشيت أن أقول : ثم من ؟ ، فيقول : عثمان ، فقلت : ثم أنت ، قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين]

وقد ثبت في (الصحيح) (٤٤) تعيين عمر ، بأنه محدث في هذه الأمة ، فأي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد ε ، فعمر أفضل منه .

---

(٤٣) وقصده بالمخاطبات ليست المخاطبات التي يخاطب بها الرب عباده ، أو تخاطب بها الملائكة العباد ، فإن هذا للأنبياء ، وإنما يقصد بالمخاطبات الإلهام القولي ، الذي يحس به الولي المحدث في نفسه ، فيحس أنه يخاطب بشيء ، وأن كلاما يقال له في أذنه أو في قلبه ، وهذا نوع من الإلهام له ، قد يكون بواسطة الملك الذي يلازمه ، وقد يكون بواسطة ملكاً آخر .

المهم أنه ليس وحيا إليه ولا مكاشفة قولية من الرب جل وعلا كما يزعم الصوفية . ا هـ .

(٤٤) إذا قيل في (الصحيح) يحتمل أن يكون المراد البخاري أو مسلم أو هما معا ، ومراده هنا مسلم .

This file was downloaded from QuranicThought.com

ومع هذا فكان عمر ، رضي الله عنه يفعل ما الواجب عليه ، فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول ε ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر ، كما نزل القرآن بموافقته غير مرة وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك ، كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين والحديث معروف في (البخاري) وغيره ، فإن النبي ε قد اعتمر سنة ست من الهجرة ، ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة ، وهم الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم ، على أن يرجع في ذلك العام ، ويعتمر من العام القابل ، شرط لهم شروطا فيها نوع غضاضة على المسلمين في الظاهر ، فشق ذلك على كثير من المسلمين ، وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة ، وكان عمر فيمن كره ذلك ، حتى قال للنبي ε : يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ ، قال : ((بلى)) ، قال : أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ ، قال : ((بلى)) ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ، فقال له النبي ε : ((إني رسول الله وهو ناصري ، ولست أعصيه)) ثم قال : أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به ، قال : ((بلى)) ، قال : ((أقلت لك : إنك تأتيه العام ؟)) قال : لا ، قال : ((إنك آتيه ومطوف به)) .

فذهب عمر إلى أبي بكر ، رضي الله عنهما ، فقال له مثل ما قال للنبي ε ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي ε ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي ε ، فكان أبو بكر ، رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي ε من عمر ، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك ، وقال

This file was downloaded from QuranicThought.com

: فعملت لذلك أعمالا [رواه البخاري في (باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب) (ج ٣ : ٢٣٩) .

وكذلك لما مات النبي ε أنكر عمر موته أولا ، فلما قال أبو بكر : إنه مات ، رجع عمر عن ذلك .

[روى البخاري عن عائشة زوج النبي ε أن رسول الله ε مات وأبو بكر بالسنخ ، قال إسماعيل : (هو شيخ البخاري) يعني بالعالية ، فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ε . قالت : وقال عمر : والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم ، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ε فقبله فقال : بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا ، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا . ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك . فلما تكلم أبو بكر جلس عمر . فحمد الل أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمدًا ε فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . وقال : [**إنك ميت وإنهم ميتون**] وقال : [**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين**] أخرجه البخاري عقب باب قول النبي ε لو كنت متخذًا خليلا . في المناقب (٥ : ٦) .

وكذلك في قتال مانعي الزكاة قال عمر لأبي بكر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ε : ((أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإذا فعلوا عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحقها)) ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ألم يقل ((إلا بحقها)) فإن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ε لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق .]

أخرجه الشيخان عن أبي هريرة . وفي مسلم بلفظ : لو منعوني عقالا بدل : عناقا .]

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضوان الله عليهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء ، فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقرهم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم مخاطب ، فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني ، فأي أحد ادعى ، أو ادعى له أصحابه أنه ولي لله ، وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ، ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة ، فهو وهم مخطئون ، ومثل هذا أضل الناس ، فعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه أفضل منه ، وهو أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله ، وهو وهم ، على الكتاب والسنة ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ε .

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل ، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به ، بخلاف الأولياء ، فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ، لا الإيمان بجميع ما يخبرون به ، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنة كان مردودا ، وإن كان صاحبه من أولياء الله ، وكان مجتهدا معذورا فيما قاله ، له أجر على اجتهاده ، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع ، فإن الله تعالى يقول : **[فاتقوا الله ما استطعتم]** [التغابن : ١٦] .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وهذا تفسير قوله تعالى : **[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته]** [آل عمران : ١٠٢] .

قال ابن مسعود وغيره : حق تقاته ، أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، أي بحسب استطاعتكم ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، كما قال تعالى : **[لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت]** [البقرة : ٢٨٦] وقال تعالى : **[والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون]** [الأعراف : ٤٢]

وقال تعالى : **[وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها]** [الأنعام : ١٥٢] .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الأنبياء في غير موضع ، كقوله تعالى : **[قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون]** [البقرة : ١٣٦] .

وقال تعالى : **[آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون]** [البقرة : ١ - ٥]

وقال تعالى : **[ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون**

This file was downloaded from QuranicThought.com

بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون] [البقرة : ١٧٧] .

وهذا الذي ذكرته ، من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل ، ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم ، بل إما أن يكون كافرا ، وإما أن يكون مفرطا في الجهل .

وهذا كثير في كلام المشائخ ، كقول الشيخ أبي سليمان الداراني [هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني ، نسبة إلى داريا ، قرية من دمشق توفي سنة ٢١٥] ، : أنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة (٤٥) .

وقال أبو القاسم الجنيد ،رحمه الله [هو أبو القاسم الجنيد البغدادي الخزار ، أصله من نهاوند ، مولده بالعراق ، تفقه على مذهب أبي ثور ، توفي سنة ٢٩٧] : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا أو قال : لا يقتدى به وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا ، نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا ، نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم : **[وإن تطيعوه تهتدوا]** (٤٦) [النور : ٥٤] .

وقال أبو عمر بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

This file was downloaded from QuranicThought.com

(٤٥) نكتة من نكت القوم ، يعني يأتي في خاطره وفي قلبه شيء مما يتصل بالإيمان والأحوال وتزكية ورؤية الأشياء والتفكر وأشباه ذلك ، فيقع في الخاطر ، أشياء قال : فلا أقبلها إلا بشاهدين من الكتاب والسنة ؛ لأنه قد يكون هذا الخاطر الذي جاءه ليس بحق ، قد يكون هذا التأمل الذي جاءه باطل ، قد يكون هذا الاستنتاج الذي استنتجه باطل ، فإذا شهد له الكتاب والسنة ، وهما القاضيان والشاهدان والمعدلان والمزكيان للأفكار والآراء ، فإنه يقبل وإذا لم يشهد له فإنه باطل . ا هـ .

(٤٦) في كلامه القديم : غلط ؛ لأن القرآن محدث ليس بقديم كما قال سبحانه : **[ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم واسروا النجوى الذين ظلموا]** .

وكذلك في آية سورة الشعراء ، فالقرآن محدث ، بمعنى ، حديث النزول من ربه جل وعلا ، حديث العهد بربه جل وعلا ، تكلم الله به فسمعه جبريل فبلغه للنبي عليه الصلاة والسلام .

وأما الذي يقال أنه قديم ، هو كلام الله ، ليس القرآن ، الكلام ، كلام الرحمن جل وعلا نقول : قديم النوع ، حادث الآحاد ، ويجوز ان تقول أن كلام الله قديم ، يعني قديم النوع لا بأس بهذا ؛ لأن الله جل وعلا أول وكذلك صفاته سبحانه وتعالى أزلية ، يعني الصفات الذاتية أولية قديمة ، فهو سبحانه وتعالى يتكلم كيف يشاء إذا شاء ، وكلامه قديم ولا يزال يتجدد كلامه بتجدد الأحوال متعلقا بمشيئته سبحانه وتعالى وقدرته .

فالقرآن لا يسوغ وصفه بأنه قديم ، بل هذا مذهب الأشاعرة ، فأنهم يجعلون

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

القرآن قديما ، تكلم الله به وفرغ في الأزل ككل كلام أراده الله ، ثم يتعلق هذا الكلام بالإرادة ، وبالزمن الذي يصلح له ، فيتجدد فليس عندهم أن القرآن كلام الله جل وعلا الذي تكلم به حين أنزل القرآن ، ولهذا اعترض الآمدي عليهم في هذه المسالة في كتابه (إبكار الأفكار) ، وفي كتابه (غاية المراد) ، وفي غيرهما بأن قول الأشاعرة باطل بل أما أن يكون الحق ، يعني من جهة التقسيم ، قول أهل السنة ، وأما أن يكون قول المعتزلة الذي هو أن القرآن مخلوق ، ثم استدل ببطلان قول المعتزلة ، فبقى الحق ، وهو قول أهل السنة ؛ لأنه يلزم من أن القرآن قديم بحسب كلام الآمدي قال : تأملت هذه المسألة ـ وهو أشعري من كبارهم ومن علماء الكلام ـ قال : تأملت من يقول القرآن قديم ، فإذا في القرآن [**قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها**] ، وفي القرآن [**قد نرى تقلب وجهك في السماء**] ، وفي القرآن [**قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون**] ، ونحو ذلك مما فيه ذكر صيغة الماضي ، قد سمع الله ، فإن كان هذا الكلام قديما فإن الله يقول [**قد سمع**] لشيء لم يصدر ، وهذا لا يجوز ؛ لأنه نوع من الكذب ، وهذا يدل على بطلان هذا القول .

المقصود أن القول هذا (في كلامه القديم) هذا غلط موافق لطريقة الشاعرة لأنه من إضافتهم . ا هـ .

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع ، فيظن في شخص أنه ولي لله ، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ، ويسلم إليه كل ما

This file was downloaded from QuranicThought.com

يقوله ، ويسلم إليه كل ما يفعله ، وإن خالف الكتاب والسنة ، فيوافق ذلك الشخص له ، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ، وجعله الفارق بين أوليائه ، وأعدائه ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشقياء ، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين ، وجنده المفلحين ، وعباده الصالحين ، ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين ، فتجره مخالفة الرسول ، وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال ، وآخر إلى الكفر والنفاق (٤٧) ويكون له نصيب من قوله تعالى : **[ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا]** [الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩] ، وقوله تعالى : **[يوم تقلب وجوهم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا]** [الأحزاب ٦٦ ـ ٦٨] ، وقوله تعالى : **[ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار]**

[البقرة : ١٦٥ ـ ١٦٧] .

This file was downloaded from QuranicThought.com

(٤٧) هذا الكلام الذي سبق كله تفريع على ما ذكر في أول الفصل من أن أولياء الله جل وعلا ليس من شرطهم أن يكونوا معصومين من الغلط ، بل قد يكون المرء يغلط في العمل ، وقد يكون عنده بعض غفلة ، بعض عصيان ، قد يغلط في بعض ما يجتهد فيه سواء في أمور العمليات أو العلميات فكل هذا يحصل ، وهم على نوعين : منهم من يغلط بعد استفراغ الوسع والطاقة في الاجتهاد ، فهذا معذور ، وله أجر على اجتهاده ؛ لأنه نظر واجتهد وافرغ الوسع والطاقة ، والله سبحانه وتعالى يقول : **[فاتقوا الله ما استطعتم]** .

ومنهم من لا يفرغ الوسع والطاقة ولا يجتهد عن بذل لتحري الحق وبذل لطاقته في تحصيل الحق ، وإنما يثق بأول خاطر أو إذا ظهر أو بدر عليه شيء ، وعرض لذهنه شيء أو لقلبه نطق به ، وتكلم وذكر ذلك عن نفسه أو حث الناس إليه دون الاجتهاد والرجوع إلى النصوص ، فذها مذموم ، وإن كان يسمي نفسه مجتهدا ، فهو مذموم .

فأولياء الله جل وعلا لا يشترط فيهم عدم الغلط بل يكون وليا ، وإن كان عنده نوع معصية أو غفلة لا يقيم عليها أو عنده نوع اجتهاد يغلط فيه ويبقى على غلطه ، لعدم ظهور الحجة له أو لتأوله أو لاجتهاده ، وهذا بخلاف حال الأنبياء .

فإن الأنبياء هم الذين لا يتكلمون إلا بحق ولا يوافقون أو يقرون على اجتهاد باطل . وهذا من الفروق ما بين الأنبياء ـ كما ذكر ـ وما بين الأولياء .

وهذا يبين لك ضلال من قال أن الأولياء أرفع مرتبة من الأنبياء ، مثل ما قاله الضال الزنديق حيث يقول : أن النبي ε طاف ببناء الأنبياء فوجد لبنة في زاوية منه لم تكمل ، فقال : ((فأنا تلك اللبنة)) ، فيرى الولي أو خاتم الأنبياء . . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

نفسه في مقام لبنتين في البناء ، لبنة ظاهرة من ذهب ، ولبنة باطنة من فضة أو العكس ، ويأخذ من المشكاه التي أخذ من المعدن الذي أخذ منه الرسول عليه الصلاة والسلام ، يعني يأخذ من الله مباشرة أو من جبريل ، وهذا رفه لمقام الأولياء على مقام الأنبياء ، وهو من أنواع الزندقة ، فمن فضل وليا على نبي ؛ فإنه كافر بالله جل وعلا ؛ لأن الأنبياء هم أفضل خلق الله والأولياء تبع لهم ، بل ما ارتفع الأولياء إلا لكونهم أتباعا للأنبياء .

فدليل ولاية الولي أنه تابع للنبي ، فكيف يكون أفضل منه ؟ أو يأمر بشيء لم يجئ في الكتاب والسنة ؟ أو ينهى عن شيء قد جاء الأمر يه في الكتاب والسنة ؟ وأشباه ذلك .

أن هذا ليس من صنيع أولياء الله ، ومثل هذا الكلام ، ربما هنا ما نعرف أبعاده ، لكن في البلاد التي يكثر فيها الصوفية وغلاة الصوفية يرون من هذا شيئا عجيبا ، حتى أن الشعراني ذكر بأن فلانا الولي يقول : ومنهم ـ يعني من الأولياء ـ سيدي فلان الفلاني كان رضي الله عنه يتلو آيات ليست في القرآن ، وكان فلان من الأولياء يخطب الجمعة في سبع قرى ـ يعني في نفس الوقت ـ ونحو ذلك مما يفضلون به الأولياء على الأنبياء مثلما قال قائلهم : مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي ، يعني أعلى المقامات الولي ثم يليه النبي ثم يليه الرسول ، عكسوا . ا هـ .

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم : **[اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما**

This file was downloaded from QuranicThought.com

أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون] [التوبة : ٣١] .

وفي (المسند) وصححه الترمذي [الترمذي لم يصححه وإنما حسنه فقط ، وهو الصواب] عن عدي بن حاتم في تفسيره هذه الآية : لما سأل النبي عنها فقال : ما عبدوهم ، فقال النبي ε : ((أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فأطاعوهم وكانت هذه عبادتهم إياهم)) ، ولهذا قيل في مثل هؤلاء : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء الرسول ε ، فلابد من الإيمان بان محمدا رسول الله ε إلى جميع الخلق ، إنسهم وجنهم ، عربهم وعجمهم ، علمائهم وعبادهم ، ملوكهم وسوقتهم ، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطنا وظاهرا حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعهم كما قال الله تعالى : **[وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون]** [آل عمران : ٨١ ـ ٨٢] .

قال ابن عباس ، رضي الله عنهما : ما بعث الله نبيا إلا أذخ عليه الميثاق ، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ، لئن يعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه . وقد قال تعالى : **[ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم**

This file was downloaded from QuranicThought.com

ضلالا بعيدا وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله ولو أنهم إذ ظلموا جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما [النساء : ٦٠ ـ ٦٥] .

وكل من خالف شيئا مما جاء به الرسول ε ، مقلدا في ذلك لمن يظن أنه ولي لله ، فإنه بني أمره على أنه ولي الله ، وأن ولي الله لا يخالف في شيء ، ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله ، كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة ، فكيف إذا لم يكن كذلك ؟ وتجد كثيرا من هؤلاء ، عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله ، أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور ، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة ، مثل أن يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها ، أو يمشي على الماء أحيانا ، أو يملأ إبريقا من الهواء ، أو ينطق بعض الألفاظ من الغيب ، أو يختفي أحيانا عن أعين الناس ، أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سرق لهم ، أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور ، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله ، بل قد اتفق أولياء الله ، على أن الرجل لو طار

This file was downloaded from QuranicThought.com

في الهواء أو مشي على الماء ، لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ε وموافقته لأمره ونهيه (٤٨) .

وكرامات أولياء الله تعالى ، أعظم من هذه الأمور ، وهذه الأمور الخارقة للعادة ، وإن كان قد يكون صاحبها وليا لله ، فقد يكون عدوا لله ، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله ، بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن ، وبحقائق الإيمان وشرائع الإسلام الظاهرة .

---

(٤٨) هذا الكلام مبني على تفصيل ما ذكره في الفصل ، وأن أولياء الله جل وعلا لا يكونون أولياء حتى يكونوا من المتبعين للكتاب والمتبعين للسنة ، فليست الولاية دعوى بل لها برهان ، فمن الناس من يغلط في هذا الموضع فيقول : هذا ولي لله ، فيقبل منه ، فلا يكون وليا لله في الواقع لمخالفته الأمر والنهي ولوقوعه في مفسقات أو في أمور بدعية أو شركية إلى غير ذلك ، فيسلم له الأمور الشركية والبدعية على أساس أنه ولي لله جل وعلا ، وهذا هو الذي جعل البدع والشركيات تنتشر في الأمصار من جراء الاعتقاد في الأولياء ، فأنه يكون هذا الولي حيا ويكون فاسقا ، فيحبب للناس بعض المنكرات أو بعض البدع ، ليحصل منهم على مال أو على جاه أو إلى آخره .

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

فيعتقد الناس أنه ولي ويتبعونه على ذلك ، ويقولون قالها الولي الفلاني ، والذي يحطم هذا الأمر هو إقامة البرهان عند الناس ان الولاية لا تكون إلا للمؤمنين المتقين : **[إلا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون]** .

فالمؤمن الذي حقق الإيمان بأركانه المتقى ، الخائف من الله جل وعلا الذي يتمثل الواجب وينتهي عن المحرم ويجل قلبه من الله ، ويستعد للقائه فهذا هو المتقي ، وهو المؤمن الذي يرجى أن يكون وليا لله جل جلاله .

وهؤلاء الذين أتوا بالبدع والشركيات ليسوا من أولياء الله ، فراج أمرهم في الناس ن والناس لا ينظرون هل هو ولي أم ليس بولي ، انتشر في الناس أنه ولي فقبلوا كل ما جاء به ، ولهذا ذكر لك في أول الكلام قول أبي عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، الوجد يعنون به ما يظهر للمرء من استحسان أشياء في العبادة أو في التأملات والتفكر أو في السلوك مع الناس ، فكل وجد ليس عليه دليل فهو باطل .

ومن عجائب ذلك ما ذكره بعض العلماء أن رجلا من أحفاد أحد الأولياء ـ كما يزعمون في المغرب ـ زعم عند بعض الناس أنه من أولياء الله ، وأن جده حدثه بكذا وكذا وكذا ، فعظمه من حل بهم وأسكنوه عندهم فصار يأمرهم وينهاهم وهم يطيعون ، فقال : لا أكافؤكم إلا بأن تحجوا معي هذا العام ، قالوا : أو تحج ؟ ، قال : نعم وستحجون معي جميعا ـ وهم في المغرب والزمان يحتاج إلى مدة طويلة ـ فلما صار وقت الحج وقرب واحد ذو الحجة ، قالوا له : إلا نحج ؟ ، قال : سوف نحج ، الأمر عند الأولياء يسير ، والثاني والثالث والرابع حتى أتى يوم عرفة ، فقالوا له : إلا نحج ؟ ، قال : بلى ، إذا . . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

أتى بعد العصر ذهبنا إلى عرفة ، فلما أتى بعد العصر أمرهم بالاستعداد ولما تجهزوا هم وأهلوهم وأولادهم ، قال : هلموا فصعد بهم إلى سطح البيت ، فقال لهم : سبحان الله هذا جبل عرفة ، قالوا : أين جبل عرفة ؟ ، قال : وهل تريدون أن تروا ما يرى الأولياء ؟ هذا جبل عرفة فادعوا هنا ، فدعوا فلما مكث مدة قال : غربت الشمس في عرفة فارحلوا ، فرحلوا قليلا ، قال : افعلوا كذا ، أتريدون أن نطوف ؟ هذه الكعبة ، فطوفوا فأخذ يعمل بهم مثل هذه الحركات ، وهم يسلمون له الولاية .

يعني أن الدرجة الأولى التي يبطل بها صنيع الدجالين والمشعوذين والكهنة وأمثال هؤلاء أن يقال للناس وأن يعلم الناس أن الولي لا يكون إلا مؤمنا تقيا .

فإذا كان حيا في الناس يأمرهم وينهاهم ويدعوهم إلى أشياء ويعتقد الناس فيهم ، فيقال لهم أن الولي هو المؤمن التقي ، وذها من أفعاله كيت وكيت وكيت من المحرمات ، والأولياء الدجالون أشاعوا في الناس أن الأولياء أعمالهم الظاهرة غير أعمالهم الباطنة ، حتى ما يأتي مثل هذا ، فيقال هو في الظاهر يعمل أشياء ، وفي الباطن قلبه وعمله لله جل وعلا .

ومنهم طائفة تسمى الملاميتة ، وهم الذين ادعوا أنهم لإخلاصهم ، يظهرون خلاف التوحيد أو خلاف الاستقامة ، خلاف الإخلاص ؛ لأجل ألا يُتهموا بالرياء ، قالوا : نظهر هذا في الناس ؛ لأجل الإخلاص حتى لا يقال هم مراؤن ، فيخفون الطاعات ويظهرون الفسوق ؛ لأجل ألا يراؤا الناس ، وفي مثل هؤلاء قال الفضيل بن عياض وجماعة : العمل لغير الله رياء ، وترك العمل لغير الله شرك ، العمل الصالح الواجب .

المقصود من هذا أن تأصيل شيخ الإسلام عظيم في بيان هذه المسألة المهمة .

مثال ذلك أن الأمور المذكورة وأمثالها ، قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ، ولا يصلي الصلوات المكتوبة ، بل يكون

This file was downloaded from QuranicThought.com

ملابسا للنجاسات ، معاشرا للكلاب ، يأوي على الحمامات ، القمامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لا يتطهر الطهارة الشرعية ، ولا يتنظف ، وقد قال النبي ε : ((لا تدخل الملائكة بيتا فيه جنب ولا كلب)) [أخرجه أبو داود والنسائي عن على ، ورجاله ثقات ، إلا أن (نجي) وهو أحد الرواة لم يوثقه سوى العجلي ، والحديث في (الصحيحين) دون قوله ((ولا جنب)) ، وروى أبو داود في ((سننه)) : ((ثلاثة لا تقربهم الملائكة ، جيفة الكافر ،ة والمتضمخ بالحلوق ، والجنب إلا أن يتوضأ)) وهو حسن لطرقه] .

وقال عن هذه الخلية : ((إن هذه الحشوش محتضرة)) [أخرجه أبو داود عن زيد بن أرقم ، ورجاله ثقات] أي يحضرها الشيطان ، وقال : ((من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين ، فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتاذى مما يتاذى منه بنو آدم)) [رواه مسلم بلفظ ((من أكل الثوم والبصل فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتاذى مما يتأذى منه بنو آدم)) ، ورواه البخاري بلفظ ((من أكل بصلا أو ثوما فليعتزلنا)) أو ((ليعتززل نسجدنا)) ، ولفظ الخبيثتين وردت من قول عمر ، كما في (صحيح مسلم) .] .

وقال : ((إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)) [رواه مسلم عن أبي هريرة]

وقال : ((إن الله نظيف يحب النظافة)) [رواه الترمذي بلفظ : ((إن الله تعالى يحب الطيب نظيف يحب النظافة))] ، وقال : ((خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية والفأرة والحدأة والكلب العقور)) [أخرجه مسلم بهذا اللفظ ، والبخاري بلفظ : ((خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن في الحرم : الغرب ، والدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور))]

وفي رواية (الحية والعقرب) وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب [ثبت أنه ε أمر بقتل الكلاب ، ثم نهى عن ذلك واستثنى من النهي الكلب العقور والأسود البهيم] ، وقال : ((من اقتنى كلبا لا يغني عنه زرعا ولا

This file was downloaded from QuranicThought.com

ضرعا نقص من عمله كل يوم قيراط)) [متفق عليه ، عن سفيان ابن أبي زهير] ، وقال : ((لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب)) [رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد عن أبي هريرة] ، وقال : ((إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب)) [رواه مسلم بلفظ (أولاهن) ولفظ (إحدهن) وردت عند الدار قطني وإسنادها ضعيف] وقال تعالى : [**ورحمتي وسعت كل شيء فاكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون**] [الأعراف : ١٥٦ ـ ١٥٧])

فإذا كان الشخص مباشرا للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان ، أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل لحيات والعقارب والزنابير ، وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ، ويتوجه إليها أو يسجد إلى ناحية شيخه ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي على المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ، ولا سيما إلى مقابر الكفار ، من اليهود والنصارى أو المشركين أو يكره سماع القرآن ، وينفر عنه ويقدم على سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر مزامير الشيطان على سماع كلام

This file was downloaded from QuranicThought.com

الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان ، لا علامات أولياء الرحمن (٤٩) .

---

(٤٩) وهذه الصفات موجودة في فئات ممن يدعى أنهم من الأولياء ، وأنهم أصحاب كرامات .

الفئة الأولى : المجاذيب أو المجانين ففيهم مثل هذه الصفات من ترك الوضوء والصلاة ؛ لأنه مجنون أصلا وأولئك يعتقدون في جنونه ـ كما سبق أن ذكرنا

الفئة الثانية : الدجالون ، الذين عرفوا أن مثل هذه الصفات يعتقد الناس فيها الولاية ، فأرادوا أن يجعلوها لأنفسهم مقاما فتلبسوا بهذه الصفات المنكرة ـ والعياذ بالله ـ لأجل أن يعظمهم الناس وأن يدعوا فيهم الولاية .

والفئة الثالثة : الكهنة والسحرة وأصحاب المخاريق الشيطانية والمشعوذين ممن هم عقلاء ، ولكن يستعينون بالجن ويستخدمون الجن ، فيكون عندهم مثل هذه الصفات السيئة .

فهذه الفئات الثلاثة ادعى فيها الناس إلى يومنا هذا ؛ لأنهم من أهل الكرامات والأولياء ، فتجد في بعض البلاد يقال للكاهن : إنه ولي ، وهو كاهن إنما يخبر من طريق الجن ، وكذلك منهم من يجعل المجنون الذي يترك الصلوات ويلابس النجاسات ولا ينطق بكلمة عاقلة يجعلون ذلك أيضا دليلا على ولايته وكرامته .

وكذلك الفئة الثالثة ـ فكما ذكر شيخ الإسلام هنا ـ أن أهل الإيمان لهم صفة وهؤلاء وإن ظهرت على أيديهم خوارق فإنما من الشياطين ، لتغوي الناس ، شياطين الجن قد تظهر للمرء بعض المعلومات ، وقد تجعل له بعض الأحوال بمساعدتهم فيغتر الناس بذلك ، والجن أقدرهم الله جل وعلا على . . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

بعض الأمور لا يقدر عليها البشر كما قال جل وعلا : **[قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى آمين قال الذي عنده علم من الكتاب** ـ يعني من الأنس ممن علم الاسم الأعظم الذي إذا سئل الله به أجاب وإذا طلب به شيء أعطى ـ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك]** إلى آخر الآيات .

فدل على أن الجن يقدرون على أشياء أقدرهم الله جل وعلا عليها **[قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك]** ، احمل لك العرش من اليمن إلى دار مملكتك في الشام قبل أن تقوم من مقامك فقط ، مدة مقامك في المجلس ، فالجن يخبرون بمغيبات ليست بمغيبات مطلقة ، مغيبات عن بعض البشر ، وهذا يسمى (العرافة) يخبرون بمغيبات تحدث في المستقبل ، ومنهم من يكون صادقا فيما أخبر ، ويكون مما التقطه مسترق السمع .

ومنهم من يكون كاذبا ، وهو الأكثر أن يكونوا كذبة ، فيكذبون مع الخبر الصادق مائة كذبة فيروج هذا في الناس .

ومنهم ـ يعني غير الأقدار وغير الإعلام ـ منهم الوحي ، يوحي يعني يلقى في نفس وليه ما في قلب صاحبه فيأتيه آتٍ ويقول له كلاما فيأتيه الجني فيقول هذا كاذب ؛ لأنه حصل منه كذا وكذا ، فيقول : أنت كاذب أو في بيتك كذا ، كيف تقول هذا وفي بيتك كذا ، كيف تفعل ، وأنت البارحة قد عملت كذا ، فيغتر هذا السائل بحال هذا المسئول ، ويكون الموكل به هو الذي يخبره بالأمور الغيبية الماضية والمستقبلة ويقدره على أشياء .الذي هو الملك ويجعلنه من الملك .

وأنه بالاتفاق أن الشياطين لا تخدم أهل الإيمان ، لهذا وجب على المؤمنين ألا

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

يغتروا بمثل هذه الظاهر التي يكون فيها ادعاء للخوارق فكما ذكرنا أن الخوارق تنقسم ثلاثة أقسام :

خوارق جربت على أيدي الأنبياء ، فهذه تسمى آيات وبراهين ودلائل .

وخوارق جرت على يدي أولياء صالحين مؤمنين متقين ، هذه تسمى كرامات

والثالث خوارق جرت على يدي فسقة مرتدة ، وربما كفرة بعيدون عن الشريعة لا يصلون ، لا يتطهرون أو عندهم بدع ، عندهم خرافات وأشباه ذلك وهذه تكون من الشياطين .

طبعا في حدودها مختلفة ، يعني الخرق الشيطاني غير الكرامة في ضابطها ، غير الآية والبرهان . ا هـ .

This file was downloaded from QuranicThought.com

قال ابن مسعود ، رضي الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن ، فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله .

وقال عثمان بن عفان ، رضي الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل .

وقال ابن مسعود : الذكر ينبت الإيمان في القلب ، كما ينبت الماء البقل ، والغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل .

وإذا كان الرجل خبيرا بحقائق الإيمان الباطنة ، فارقا بين الأحوال الرحمانية ، والأحوال الشيطانية ، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره كما قال تعالى : **[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم]** [الحديد : ٢٨] ، وقال تعالى : **[وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا]** [الشورى : ٥٢] ، فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ε قال : ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)) (٥٠) ، قال الترمذي حديث حسن [وهو حديث حسن لغيره ، كما قال الهيثمي وغيره] .

وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره ، قال فيه : ((لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل ، حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها)) ، ((فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي)) [هذا الجزء (فبي يسمع ...) ليس من رواية البخاري] ((ولئن استعاذني لأعذينه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ، ترددي

This file was downloaded from QuranicThought.com

في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته)) ، ((ولابد له منه)) [هذا الجزء (لابد له منه) ليس من رواية البخاري] .

فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وحال أولياء الشيطان ، كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم المزيف ، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الردئ ، وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان ، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذاب ، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين ، والأسود العنسي وطلحة الأسدي والحارث الدمشقي وباباه الرومي ، وغيرهم من الكذابين ، وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين ، وأولياء الشيطان الضالين .

---

(٥٠) وأظهر دلالة على المقصود من استدلاله بالآيتين قوله جل وعلا في سورة الأنفال : **[يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا]** ، فبتقوى الله جل وعلا يجعل للمرء فرقان ، وهذا الفرقان قد يكون في الأمور العلمية ، وقد يكون في الأمور العملية ، وقد يكون في الأمور القدرية ، يعني الراجعة على القدرة ، وهذه هي أنحاء الكرامات .

فالكرامة قد تكون راجعة إلى العلم ، وقد تكون العمل ، وقد تكون راجعة إلى القدرة ، ولهذا قال سبحانه : **[إن تتقو الله يجعل لكم فرقانا]** يعني فرقانا بين الأشياء ، بين الحق والباطل في الأمور العلمية وبين الهدى والضلال في الأمور العملية ، وما بين صنيع الشياطين وصنيع الأولياء وكرامات الأولياء

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

والصالحين ومخاريق الكهنة والشياطين فهذا يكون بالتقوى .

إذا اتقى العبد الله ، وكان في تقواه محسنا فإنه يؤتى هذا الفرقان ، فيبصر الحق ويبصر الباطل ، كما قال سبحانه وتعالى : **[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم]** ، وهذا النور هو الفراسة في قوله عليه الصلاة والسلام : ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)) .

لفراسة قسمها العلماء إلى ثلاثة أقسام : فراسة خلقية رياضية ، وهذه الفراسة هي التي كتبت فيها المؤلفات التي تسمى بكتب الفراسة ، يعني يستدلون بالخَلْق على الخُلُق ، يستدلون بالخلق على الصفات ، يستدلون بصفة العينين على ذكائه من عدمه ، يستدلون بكبر الرأس على ذكائه من عدمه ، يستدلون بسعة الصدر على حلمه من عدم حلمه ، يستدلون بوفرة جسمه على كذا من كذا، يستدلون بتقاطيع وجهه ، بعرض جبهته ، بشموخ أنفه ، بسعة وجهه ، بطول وجهه إلى آخره ، هذه ألفت فيها مؤلفات كثيرة ، بلون الشعر ، بلون العينين على صفات هذا المتصف بتلك الصفات ، هذا النوع ، وهي الفراسة الخلقية ، هذه راجعة إلى تجارب الناس ، منها ما هو حق ، ومنها ما هو باطل ، لذلك ما فيها لا يجوز أن يعتمد بإطلاقه كذلك لا يرد لما فيه من الحق ، ومن العلماء من كان يغلو في مثل هذه ويعتمدها مثل ما يذكر ، وهو صحيح عن الشافعي رحمه الله ، فإنه تعلم هذا النوع من الفراسة ، وأكثر فيها جدا ، حتى ربما اشترى له الشيء من أحد فسأل عن صفته ، فربما لم يطعم الطعام ؛ من أجل صفته ، أرسل خادمه مرة فقال له أن يشتري بعض البقول ، يعني بعض الخضروات ، فقال : ممن اشتريت ؟ ، قال : من رجل ، قال : ما صفته ؟ ،

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

قال : أعرج ، فقال : لا أكله كلوه ، وأشباه ذلك .

هذا نوع من التشاؤم وإن كان وقع فيه بعض أجلة أهل العلم ، وأجلة الأئمة لكنه شيء يغلب على النفس ، وكل يؤخذ من قوله ويرد ، وبعض العلماء أيضا كان يكثر من هذا ويستعمله في حياته ، وهذا لا ينبغي فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانت صفاتهم مختلفة ، منهم من كان دقيقا قصيرا جدا ، منهم من كان طويلا ، منهم من كان كبير الرأس ، ومنهم من كان صغير الرأس ، منهم من كان صغير العينين ...إلى آخره ، هذه الصفات التي يزعمون ، وكانوا في مقامات الإيمان والصلاح والفأل بمخالطتهم ما تعلمون .

والنوع الثاني من الفراسة : فراسة علمية ، وهذه الفراسة العلمية تسمى فراسة ؛ لأن العلم الصحيح يأتي لصاحبه كركوب صاحب الفرس عليه ، فقوة صاحب الفرس منه ، وتمكنه من ذلك أيضا هذا يأتيه من العلم والإلهام بما يعلم به الحق ، وهذا النوع من الفراسة هو الذي يكون كرامة من الكرامات ، ولهذا يبحث العلماء الفراسة وأنواعها في مبحث كرامات الأولياء ؛ لأجل هذا النوع ، فقوله عليه الصلاة والسلام : ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)) يعني هذا النوع من الفراسة في الأمور العلمية ، يعني الراجعة إلى علمه بالأشياء ، علمه بما في نفس صاحبه ، ينظر إليه بعلمه فيعلم ما يجول بخاطره يعلم أنه يفكر في كذا وأشباه هذا ، فهذا من النور الذي يقذفه الله جل وعلا في القلب ، لكن لا يسوغ أن تحكم به ، يعني أن يجعل دليلا على الحكم فيستعمله المستعمل على أنه دليل ، هذا خاطر يأتي للقلب ، ويهجم عليه ويكون في أهل الولاية وأهل الإيمان الصحيح والتقوى ، فراسة من نور الله جل وعلا ، لكن لا يسوغ لصاحبه أن يحكم به ، وأن يستعمله فيظن بالناس الظنون ؛ لأجل هذه

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

الفراسة ، أو أن يحمدهم ؛ لأجل هذه الفراسة ؛ لأن الفراسة دليل ناقص ، قد تكون من نور الله جل وعلا ، وقد لا تكون ، المرء لا يزكي نفسه فلا يدري هل هذا الخاطر الذي هجم عليه ، هل هو من نور الله جل وعلا ، أو هو من الظن السيئ ، أو هو من الظن الحسن الذي فيه تزكية لغيره وأشبه ذلك مما لا يسوغه فله أن يستعمله من جهة الاحتياط من جهة المعرفة ، لكن ليس له أن يحكم به إلا في بعض الأحوال التي يقوى فيها ، بحيث يكون عنده يقين بذلك ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((كان فيمن قبلكم محدثون ـ يعني ملهمين ـ فإن يكن أحد منكم فعمر)) .

النوع الثالث من الفراسة : أدخلت في الفراسة ، وهي المسماه بالقيافة ، والقافة منهم من يعلم الأشكال فيلحق هذا بأبيه ، ومنهم من يعلم الأثر ، وهذه القيافة قد تصل في أهلها ، معروف بعض قبائل العرب فيها هذا الأمر كبني مرة ونحوهم ، يعرفون من وطئ القدم هو من أي قبيلة ، ويعرفون من وطئ القدم ، هل الوطء رجل أم امرأة ، وهل المرأة حائض أم طاهر ، وهذا يسمى القيافة تتبع الأثر ، وهذا علم خاص يتداولونه فيما بينهم ، وهو صحيح دلت التجارب على صحته ، والشريعة جاء فيها الحكم بالقيافة .

فالقائف يحكم بقوله في المسائل التي يحتاج فيها إلى قائف ، مثل تنازع الأنساب وأشباه هذه ، والنبي عليه الصلاة والسلام ، كان عنده زيد بن حارثة نائما وابنه أسامة بن زيد ، وقد غطيا وجهيهما وبدت أقدامهما ، فأتى رجل من القافة ، فقال : يا رسول الله هذه الأقدام بعضها من بعض ، فسر النبي ε ، وبرقت أسارير وجهه عليه الصلاة والسلام ؛ لأجل ذلك لمحبته لأسامة ولأبيه ، رضي الله عنهما .

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

فهذا النوع صحيح شرعا ويحكم به ، ويصير القاضي إليه ، وهو من حيث الظاهر أقوى الأدلة ، أعني بالأدلة أنواع الفراسة السالفة ، وليست الأدلة يعني البينات عند القاضي ، أقوى أنواع الفراسة من حيث الحكم الظاهر ، أما الباطن .

فالثاني الذي هو الكرامة ، فراسة المؤمن .

الأول قد يكون وقد لا يكون .

This file was downloaded from QuranicThought.com

فصل

والحقيقة حقيقة الدين ، دين رب العالمين ، هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج ، فالشرعة ، هي الشرعية ، قال الله تعالى : [**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا**] [المائدة : ٤٨] ، وقال تعالى : [**ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين**] [الجاثية : ١٨ - ١٩] ، والمنهاج : هو الطريق ، قال تعالى : [**وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا**] [الجن : ١٦ - ١٧] .

فالشرعة : بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه ، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الإسلام ، وهي أن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره ، فمن استسلم لغيره كان مشركا، [**إن الله لا يغفر أن يشرك به**] [النساء : ٤٨] ، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته ، كان ممن قال الله فيه : [**إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**] [غافر : ٦٠] ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ، وقوله تعالى : [**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه**] [آل عمران : ٨٥] عام في كل زمان ومكان .

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له (٥١) ، قال

This file was downloaded from QuranicThought.com

الله تعالى عن نوح : **[يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم]** [يونس : ٧١] ، إلى قوله : **[وأمرت أن أكون من المسمين]** [يونس : ٧٢] ، وقال تعالى : **[ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون]** [البقرة ١٣٠ - ١٣٢] ، وقال تعالى : **[وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين]** [يونس : ٨٤] .

وقال السحرة : **[ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين]** [الأعراف : ١٢٦] ،

وقال يوسف:**[توفني مسلما وألحقني بالصالحين]** [يوسف : ١٠١]

وقالت بلقيس : **[أسلمت مع سليمان لله رب العالمين** [النمل : ٤٤]

وقال تعالى : **[يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار]** [المائدة : ٤٤] ، وقال الحواريون **: [آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون]**[آل عمران : ٥٢]

فدين الأنبياء واحد ، وإن تنوعت شرائعهم كما في(الصحيحين) عن النبي ε قال : ((إنا معشر الأنبياء ديننا واحد)) .

قال تعالى :**[شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه]** [الشورى : ١٣] ، وقال تعالى : **[يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون**

This file was downloaded from QuranicThought.com

فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون] [المؤمنون : ٥١ - ٥٣] .

---

(٥١) يعني دين الإسلام العام ، فكل دين بعث به الرسل هو دين الإسلام لكنه دين الإسلام العام ، يعني الذي يشترك فيه الأنبياء والمرسلون ، الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله .

أما الإسلام الخاص ، فهو شريعة الإسلام الذي أرسل به محمد عليه الصلاة والسلام .

فالإسلام يطلق على ثلاثة أشياء :

الإسلام العام : وهو دين الأنبياء والمرسلين جميعا الذي فيه قول الله جل وعلا : **[ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه] .**

والثاني الإسلام الخاص : وهو الإسلام الذي بعث به محمد عليه الصلاة والسلام .

والثالث الإسلام الأخص : وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

إذاً الإسلام في النصوص له هذه الإطلاقات الثلاثة : عام ، خاص ، أخص .

فصل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ، وسائر أولياء الله تعالى ، على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب ، فقال تعالى : **[ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا]** [النساء : ٦٩] .

وفي الحديث : ((ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر)) وأفضل الأمم أمة محمد ε ، قال تعالى : **[كنتم خير أمة أخرجت للناس]** [آل عمران] وقال تعالى : **[ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا]** [فاطر : ٣٢] . وقال النبيε في الحديث الذي في المسند : ((أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله)) . وأفضل أمة محمد ε القرن الأول .

وقد ثبت عن النبي ε ، من غير وجه أنه قال : ((خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)) ، وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه .

وفي الصحيحين أيضا عنه ε أنه قال : ((لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده ، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)) .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أفضل من سائر الصحابة . قال تعالى : **[لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى]** [الحديد : ١٠] وقال تعالى : **[والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي**

This file was downloaded from QuranicThought.com

الله عنهم ورضوا عنه] [التوبة : ١٠٠] . والسابقون الأولون : الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، والمراد بالفتح : صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة ، وفيه أنزل الله تعالى : [**إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر**] [الفتح : ١ ، ٢] ، فقالوا : يا رسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : ((نعم)) .

وأفضل السابقين الأولين ، الخلفاء الأربعة ، وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها ، وقد دلت على ذلك دلائل ، بسطناها في : (منهاج السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية) .

وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة ، على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء الأربعة ، ولا يكون من بعد الصحابة من هو أفضل من الصحابة .

وأفضل أولياء الله تعالى ، أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ε واتباعا له ، كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه ، وأبو بكر الصديق هو أكمل معرفة بما جاء به وعملا به ، فهو أفضل أولياء الله ، إذ كانت أمة محمد ε أفضل الأمم ، وأفضلها أصحاب محمد ε ، وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه .

وقد ظن طائفة غالطة أن خاتم الأولياء وأفضل الأولياء ، قياسا على خاتم الأنبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء ، إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي ، فإنه صنف مصنفا غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ، ومنهم من يدعي أنه خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله ، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته ، كما زعم ذلك ابن

This file was downloaded from QuranicThought.com

عربي صاحب كتاب : (الفتوحات المكية) ، وكتاب : (الفصوص) ، فخالف الشرع والعقل ، مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه ، كما يقال لمن قال : فخر عليهم السقف من تحتهم : لا عقل ولا قرآن .

وذلك أن الأنبياء أفضل من في الزمان من أولياء هذه الأمة ، والأنبياء عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء ، فكيف الأنبياء كلهم ؟! والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ، ويدَّعي أنه خاتم الأولياء ، وليس آخر الأولياء أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم ، فإن فضل محمد ε ثبت بالنصوص الدالة على ذلك ، كقوله ε : ((أنا سيد ولد آدم ولا فخر)) ، وقوله : ((آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك)) .

وليلة المعراج ، رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم ، فكان أحقهم بقوله تعالى : **[تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات]** [البقرة : ٢٥٣] ، إلى غير ذلك من الدلائل ، كل منهم يأتيه الوحي من الله ، لا سيما محمد ε ، لم يكن في نبوته محتاجا إلى غيره ، فلم تحتج شريعته إلى سابق ، ولا إلى لاحق ، بخلاف المسيح ، أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وجاء المسيح فكملها ، ولهذا النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح ، كالتوراة والزبور ، وتمام الأربع وعشرين نبوة ، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين ، بخلاف أمة محمد ε ، فإن الله أغناهم به ، فلم يحتاجوا معه إلى نبي ، ولا إلى محدث ، بل جمع له الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرَّقه في غيره

This file was downloaded from QuranicThought.com

من الأنبياء ، فكان ما فضله الله بما به أنزله إليه ، وأرسله إليه ، لا بتوسط بشر .

وهذا بخلاف الأولياء ، فإن كل من بلغه رسالة محمد ε يكون وليا لله باتباع محمد ε ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه ، لا يكون وليا لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه (٥٢) .

---

(٥٢) هذا الكلام من أول الفصل إلى هنا في مسألة أن الأنبياء أفضل من الأولياء قطعًا ، وتفضيل النبي على الولي ظاهر من جهة الدليل ، كما ذكر شيخ الإسلام من الأدلة الكثير في الباب ، وظاهر أيضًا من جهة التعليل ، فإن الولي لم يكن وليا إلا باتباعه للنبي ؛ فبسبب اقتدائه بالنبي واتباعه له صار وليا ، وجاءته الكرامة من جهة اتباعه للنبي ε ، فهو دائما أقل رتبة ، والأولياء في هذه الأمة أكملهم وأرفعهم درجة ، الأربعة الخلفاء ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين .

والطوائف التي فضلت الأولياء على الأنبياء ، أو فضلت خاتم الأولياء على خاتم الأنبياء ، ثلاث طوائف :

الأولى : هم غلاة الصوفية .

الثانية : هم الرافضة والإسماعيلية . باعتبار أنهم أصلهم طائفة واحدة .

والثالثة : الفلاسفة .

فأما غلاة الصوفية فزعموا أن جهة تفضيل الولي على النبي أن النبي إنما يأخذ من الملك ، وأما الولي فيأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك ، كما قال ابن عربي في فصوصه . فالنبي يأخذ بواسطة والولي يأخذ بلا واسطة .

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

لهذا كتب ابن عربي كتابه المعروف (الأربعين عن رب العالمين) يعني التي حدث بها عن رب العالمين مباشرة ، بما سمعه منه ، هذا من جهة التفضيل ، عندهم أن الولي يصل إلى المكاشفة بحيث لا يكون هناك حجاب ، والأنبياء حجبوا ، منهم من كُلِّم في بعض الأحيان ، أما الولي فإنه إذا اختار أن يسمع الكلام فلا عليه إلا أن يصفي قلبه ، يعمل بالرياضات الخاصة عندهم ، الرياضات الروحية ، ثم ينكشف عنه الحجاب ، فيصبح يرى ما يحدث في الملكوت ويسمع أوامر الحق جل وعلا للملائكة .

والطائفة الثانية : الرافضة والإسماعيلية ، فإن الرافضة يزعمون أن أئمتهم لهم من المقام ما ليس للأنبياء ، وعندهم هذا من ضروريات المذهب ، حيث يقول بعض أئمتهم : من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، يعني مما لا يحتاج فيه إلى استدلال أصلا ، ضروري ، أن الأئمة الاثنا عشر ، ابتداءً من على إلى العسكري ، هؤلاء لا يبلغهم ملك مقرب ولا نبي مرسل . قال : وأنهم كانوا قبل خلق هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لم يجعله لأحد من العالمين .

والإسماعيلية ، القرامطة ، والعبيديين ، والنصيرية ، والدروز ، زعموا أن أوليائهم أعظم من الأنبياء من جهة أن الولي ـ وهم أولياء سبعة عندهم أو أربعة ـ أن الولي يحل فيه الحق جل وعلا ، وليس كل نبي يستحق هذه المنزلة ، فالأولياء تميزوا على الأنبياء بأنهم يحل فيهم الحق جل وعلا ، فيصبحون صورة لله جل وعلا ، صورة ناسوتية وليس بلاهوتية ، يعني بحلول الحق جل وعلا ، فالجثمان جثمان إنساني ولكن العلم والحكمة والأمر

. . . . . .

والنهي إلهي .

This file was downloaded from QuranicThought.com

والطائفة الثالثة ممن يقولون بتفضيل الأولياء على الأنبياء : الفلاسفة ، فالفلاسفة يقولون : النبوة والفلسفة تجتمع في شئ واحد ، وهو أن الجميع فيه تحصيل غاية الحكمة ، والنبوة تحصيل الحكمة فيها بواسطة الملك ، لا دور للنبي في تحصيل الحكمة بإدراكه وسعيه وبذله ، وأما الفيلسوف الحكيم فإنه حصل له هذا المقام ، وهو إدراك الحكمة بفعله وإدراكه وبذله وعقله وفهمه ؛ فلهذا الفيلسوف تساوى مع النبي في إدراك الحكمة ، ولكن زاد على أنه أدركها بعقله وبحثه ونظره ، وذاك بواسطة .

وهذا القول وكل أقوال الفلاسفة زندقة ، وكل من قال بهذا القول فهو زنديق ، يستتاب على الكفر وإلا قتل ، وبعض أهل العلم قال : يجب قتله بلا استتابة ، من أظهر هذا القول فإنه يجب قتله بلا استتابة ؛ لأن هذا القول مما لا شبهة فيه أصلا ، وإنما هي زندقة محضة ، وما ذكره سيخ الإسلام فيه تفصيل الكلام ، وأوضح من أن الرسالات جميعا جاءت بالإسلام ، وأن الرسل إنما يفضلون بالإسلام لله رب العالمين ، وباتباع الأنبياء والرسل يشرف أقوام والأولياء ، إلى آخر ما ساق من الآيات والأحاديث في هذا الباب .

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ε ، من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد ، فهذا كافر ملحد ، وإذا قال : أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر ، دون علم الباطن ، أو في

This file was downloaded from QuranicThought.com

علم الشريعة ، دون علم الحقيقة ، فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمدًا رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب . فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فكانوا كفارا بذلك .

وكذلك هذا الذي يقول : إن محمدًا بعث بعلم الظاهر ، دون علم الباطن ، آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض ، فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ؛ لأن علم الباطن ، الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها ، هو علم بحقائق الإيمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة .

فإذا ادَّعى المدَّعي أن محمدًا ε ، إنما علم هذه الأمور الظاهرة ، دون حقائق الإيمان ، وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة ، فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول ، دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول: أومن ببعض وأكفر ببعض .

ولا يدعي أن هذا الذي آمن به أدنى القسمين .

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن الولاية أفضل من النبوة ، ويلبسون على الناس ، فيقولون : ولايته أفضل من نبوته ، وينشدون :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويقولون : نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فإن ولاية محمد ε لم يماثله فيها أحد ، لا إبراهيم ولا موسى، فضلا عن إيمان ثلة فيها هؤلاء الملحدون .

وكل رسول نبي ولي ، فالرسول نبي ولي ، ورسالته متضمنة لنبوته ، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله ، فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن

This file was downloaded from QuranicThought.com

يكون إلا وليا لله ، ولا تكون مجرد ولايته ، ولو قدرت مجردة ، لم يكن أحد مماثلا للرسول في ولايته .

وهؤلاء قد يقولون كما يقول صاحب (الفصوص) ابن عربي : إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول . وذلك أنهم اعتقدوا عقيدة المتفلسفة ، ثم أخرجوها في قالب المكاشفة ، وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا : إن الأفلاك قديمة أزلية ، لها علة تتشبه بها ، كما يقول أرسطو وأتباعه : أولها موجب بذاته . كما يقول متأخروهم ، كابن سينا ، وأمثاله ، ولا يقولون : إنها لربٍ خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ، بل إما أن ينكروا علمه مطلقا ، كقول أرسطو ، أو يقولوا : إنما يعلم من الأمور المتغيرة كلياتها ، كما يقول ابن سينا .

وحقيقة هذا القول ، إنكار علمه بها ، فإن كل موجود في الخارج فهو معين جزئي الأفلاك ، كل معين منها جزئي ، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم إلا الكليات ، لم يعلم شيئا من الموجودات ، والكليات إنما توجد كليات في الأذهان ، لا في الأعيان .

والكلام على هؤلاء مبسوط في موضع آخر ، في رد تعارض العقل والنقل وغيره ، فإن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب ، فإن جميع هؤلاء يقولون :

إن الله خلق السماوات والأرض وأنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وأرسطو ونحوه من المتفلسفة واليونان ، كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وهم يعرفون الملائكة والأنبياء ، وليس في كتب أرسطو ذكر شئ من ذلك ، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية .

وأما الأمور الألهية ، فكل منهم فيها قليل الصواب ، كثير الخطأ ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالهيئات منهم بكثير ، ولكن متأخروهم كابن سينا وغيره أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل ، فأخذوا أشياء من أصول الجهمية والمعتزلة ، وركبوا مذهبا قد يعتزي إليه متفلسفة أهل الملل ، وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنب على بعضه في غير هذا الموضع .

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل ، كموسى وعيسى ومحمد ع ، قد بهر العالم ، واعترفوا بالناموس الذي بعث به محمد ع ، أعظم ناموس طرق العالم ، ووجدوا أن الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن ، أرادوا أن يجمعوا بين ذلك ، وبن أقوال سلفهم اليونان ، الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، وأولئك قد أثبتوا عقولا عشرة ، يسمونها : المجردات ، والمفارقات .
وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، وسموا تلك : المفارقات ، لمفارقة المادة ، وتجردها عنها . وأثبتوا الأفلاك ، لكل فلك نفسا ، وأكثرهم جعلوها أعراضا ، وبعضهم جعلها جواهر (٥٣)

---

(٥٣) ما سبق يريد منه الشيخ تقي الدين ، رحمه الله ، أن يربط ما بين غلاة المتصوفة في مسالة الولاية وقول الفلاسفة ، فإن غلاة المتصوفة أخذوا تفضيل

This file was downloaded from QuranicThought.com

الولي على النبي من الفلاسفة ، والفلاسفة ـ كما ذكرت لك في الدرس الماضي ـ قالوا إن الفيلسوف وصل إلى الحكمة بجهده ، وأما النبي فوصل إليها بإعطاء ، ومعلوم أن المجتهد أفضل من المعطى ، وهؤلاء نظروا إلى جهة العمل ؛ لأن الحكمة والفضل يرجع إلى جهتين : إلى قوة علمية ، وإلى قوة عملية . فالفلاسفة فضلوا من الجهة العلمية ، فضلوا الفلاسفة والحكماء على الأنبياء من الجهة العلمية ، والصوفية وغلاة المتصوفة فضلوا الأولياء على الأنبياء من الجهة العملية ، التي أساسها الجهة العلمية .

لكن طابع الفلاسفة غير طابع المتصوفة ، طابع الفلاسفة شئ ، والمتصوفة شئ آخر ، سبب هذا التفضيل راجع إلى ما وصف لك سيخ الإسلام من أصول أقوال الفلاسفة ، من فلاسفة اليونان أصلا ، والقول بوجودات مجردة وكليات مجردة وتصرفات للكواكب ، أو تصرفات للعلل التي تنتج المعلولات ، وأن إدراك هذه الحقائق الكلية وتأثيراتها في هذا الكون هو حقيقة الحكمة والعلم الذي يتفاضل به الناس ، فالقوة مختلفة ، فالقوة العلمية والعملية هذه هي أقوى الإدراكات ، وكذلك القوة التخيلية التي بها يُتخيل الأمر ، فرجعوا بالنبوات إلى أنها اجتماع قوة علمية وعملية وتخيلية ؛ فلهذا قالوا : نحن نقول ما نقول عن برهان ، وأما الأنبياء والرسل ، فقالوا ما قالوا عن تخيل والبرهان ، الذي أقاموه برهان خطابي ، لا برهان عقلي ، فإن ما جاء في النبوات من ذكر الجنة والنار وذكر الغيبيات عندهم خطابية والعقليات المجردة وتصور أمثلة

. . . . . .

مجردة عن الواقع .

This file was downloaded from QuranicThought.com

المقصود من هذا الكلام ، وهو مبسوط وله مكان لشرحه ولا يناسب شرحه في المساجد ، المقصود من هذا الصلة ما بين قول الفلاسفة الإسلاميين والفلاسفة اليونانيين ، ثم ما نتج من قول الصوفية .

وفي الحقيقة أن الصوفية لم يأخذوا هذا القول ـ كما ذكر شيخ الإسلام ـ أو ما ألع إليه كلامه ، لم يأخذوه من الفلسفة الإسلامية ، بل أخذوه من الفلسفة اليونانية ، وأصل ذلك أن الفلسفة اليونانية والفلسفة القديمة لها قسمان :

النوع الأول : فلسفة علمية ، وهذه المراد منها الوصول إلى حقائق الأشياء العلمية على ما هي عليه .

النوع الثاني : فلسفة عملية ، والمراد منها الوصول بالروح إلى إشراقها ، ولهذا صارت الفلسفة أقساما ، ومنها الفلسفة العلمية التي ذهب إليها أفلاطون وتلميذه أرسطو ، والفلسفة الإشراقية التي قال بها أفلاطين ـ أفلاطين غير أفلاطون ـ دخلت المذاهب هذه إلى الدول أو إلى بلاد المسلمين وتلقفها من تلقفها .

فالفلسفة العلمية تلقفها العقلانيون من المعتزلة ، فنشأ من خليط ما عند أهل الاعتزال وما عند الفلاسفة وما في النصوص ، ما يسمى بعلم الكلام ، خليط من هذه الأشياء الثلاثة ، عقيدة المعتزلة ، النصوص ، الفلسفة ، فنشأ علم الكلام من مجموع هذه الثلاثة أشياء .

وأما الفلسفة العملية الإشراقية ، فهذه أيضا دخلت على المسلمين عن طريقين :

الطريق الأول : طريق الكتب المترجمة .

الطريق الثاني : مخالطة طائفة كبيرة من المسلمين للنصارى في أديرتهم في

. . . . . .

الشام وفي العراق وفي غيرها .

This file was downloaded from QuranicThought.com

دخلت الفلسفة الإشراقية ، والفلسفة الإشراقية معناها الوصول بالروح إلى إشراقها فتتعدى العالم المحسوس إلى العالم غير المحسوس ، وهذا يصل بالرياضة ، هذا النوع هو الذي دخل في الصوفية فنشأ الغلو في التصوف من جهة دخول فلسفة أفلوطين الإشراقية ونشأ ما يسمى بالسلوك ـ الضال ـ أو التصوف في خليط ما بين الزهد الشرعي وما بين الإشراق الفلسفي ، وظهرت النظريات والأقوال المختلفة عند الصوفية الغالية من الاتحاد والوحدة والفناء إلى آخره نتيجة لهذا ، وصلوا كما وصل إليه الفلاسفة العلميين الإشراقيين إلى أن الإنسان قد يصل إلى مرتبة تكشف فيها الحجب ويصل إلى ما وراء العالم المنظور ..إلى آخره .

محصل القول عند الطائفتين ، أن الفيلسوف صاحب الحكمة هو أفضل البشر ، الفيلسوف العلمي العقلي أفضل من غيره ، وهذا هو الذي قال به الفلاسفة مثل ابن سينا وجماعته ، قالوا بتفضيل الفيلسوف على النبي لما ذكرنا لك في الدرس السابق .

والصوفية فضلوا الولي صاحب الإشراق على النبي ؛ لأن النبي حجب بالحجب وأما ذاك فإنه أشرق ففنى عن مشاهده السوى ، ووصل إلى مشاهده الرب جل وعلا ، وسماع كلامه وأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي نقل إلى الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه ، ففضلوا من جهة انهم أخذوا بلا واسطة ، وأما الأنبياء فأنهم أخذوا بواسطة . توجد تفاصيل لهذا الكلام معروف ، ولكن بيان أصل الارتباط ما بين القول بتفصيل الولي على النبي في ربطه بالفلاسفة العلميين ، وبالفلاسفة العمليين ، كما ذكرت لك . ا هـ .

وهذه المجردات التي أثبتوها ، ترجع عند التحقيق إلى أمور موجودة في الأذهان ، لا في الأعيان (كما أثبت أصحاب

This file was downloaded from QuranicThought.com

فيثاغورس أعدادا مجردة) وكما أثبت أصحاب أفلاطون الأمثال الافلاطونية المجردة .

أثبتوا هيولي مجردة عن الصورة ، ومدة وخلاء مجردين ، وقد اعترف حذَّاقهم بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان ، لا في الأعيان ، فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم ، كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة ، زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة ، من اتصف بها فهو نبي :

١ ـ أن تكون له قوة علمية ، يسمونها القوة القدسية ، ينال بها العلم بلا تعلم .

٢ ـ وأن يكون له قوة تخيلية ، تخيل له ما يعقل في نفسه بحيث يرى في نفسه صورا ، أو يسمع في نفسه أصواتا ، كما يراه النائم ويسمعه ، ولا يكون لها وجود في الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله ، وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى .

٣ ـ وأن يكون له قوة فعالة ، يؤثر بها في هيولي العالم [هيولي العالم : يعني مكونات العالم] ، وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، وخوارق السحرة هي من قوى الأنفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم ، من قلب العصا حية دون انشقاق القمر ونحو ذلك ، فإنهم ينكرون وجود هذا .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع ، وبينا أن كلامهم هذا أفسد الكلام ، وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي تحصَّل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ، ولأتباع الأنبياء ، وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل ، أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله ، وهم كثيرون ، كما قال تعالى : **[وما يعلم جنود ربك إلا هو]** [المدثر :

This file was downloaded from QuranicThought.com

٣١] وليسوا عشرة ، وليسو أعراضا ، لا سيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو العقل الأول ، وعنه صدر كل ما دونه ، والعقل الفعَّال العاشر ، ربَّ كل ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل ، فليس أحد من الملائكة مبدعًا لكل ما سوى الله . وهؤلاء يزعمون أن العقل المذكور في حديث يروى : ((إن أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : وعزتي ما خلقت خلقا أكرم عليَّ منك ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب وعليك العقاب)) ويسمونه أيضا القلم لما روي ((إن أول ما خلق الله القلم)) الحديث رواه الترمذي [وهو حديث صحيح أخرجه أحمد ، والترمذي ، وصححه] .

والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث ، كما ذكر أبو الحاتم البستي [يعني ابن حبان] ، والدار قطني ، وابن الجوزي ، وغيرهم . وليس في شئ من دواوين الحديث التي يعتمد عليها . ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا حجة عليهم ، فإن لفظة : ((أول ما خلق الله تعالى العقل)) قال : - ويروى - ((لما خلق الله العقل قال له ..)) [أخرج عبد الله بن الإمام أحمد في (زوائد المسند) ، قال : حدثنا علي بن مسلم ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا مالك بن دينار عن الحسن يرفعه : ((لما خلق الله تعالى العقل قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أدبر ، فأدبر . قال : ما خلقت خلقا أحب إليَّ منك ، بك آخذ وبك أعطي)) وهو مرسل ، وهو في (معجم الطبراني الأوسط) موصول من حديث أبي أمامة وأبي هريرة بإسنادين ضعيفين ، ومما يحسن التنبيه عليه أن كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصح منها شئ ، وهي تدور بين الضعف والوضع . وقد أخرج الحارث بن أبي أسامة في (مسنده) عن داود بن

This file was downloaded from QuranicThought.com

المحبر بضعا وثلاثين حديثا في فضل العقل . قال الحافظ بن حجر : كلها موضوعة . وقال ابن القيم في (المنار) ص (٢٥) أحاديث العقل كلها كذب .]

فمعنى الحديث : أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ، وليس معناه أنه أول المخلوقات و (أول) منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر (لما) وتمام الحديث ((ما خلقت خلقا أكرم عليَّ منك)) فهذا يقتضي أنه خَلَقَ قبله غيره ، ثم قال : ((فبك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب ، وعليك العقاب)) فذكر أربعة أنواع من الأعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل . فأين هذا من هذا ؟

وسبب غلطهم أن لفظ العقل في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة اليونان ، فإن العقل في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا ، كما في القرآن [**وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير**] [تبارك : ١٠] ، [**إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون**] [الرعد : ٤] ، [**أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها**] [الحج : ٤٦] ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها .

وأما أولئك ، فالعقل عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ، وليس هذا مطابقا للغة الرسل والقرآن ، وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد ، عالم الأجسام : العقل والنفوس ، فيسميها عالم الأمر ، وقد يسمي (العقل) عالم الجبروت (والنفوس عالم الملكوت) ، (والأجسام عالم الملك) ، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ولم يعرف معنى الكتاب والسنة أن ما في الكتاب والسنة من ذكر الملك والجبروت موافق لهذا ، وليس الأمر كذلك .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيسا كثيرا كإطلاقهم أن الفلك محدث ، أي معلول ، مع أنه قديم عندهم ، والمحدث لا يكون إلا مسبوقا بالعدم ، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى قديم الأزلي : محدثا ، والله قد أخبر أنه خالق كل شئ . وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ، لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبر به الرسول ، ولا أحكموا فيها قضايا العقول ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للأعداء كسروا ، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ، ونازعهم في بعض المعقولات الصحيحة فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون جبريل هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي ε ، والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم أولياء الله ، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله ، وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة ، كابن عربي صاحب (الفتوحات) و (الفصوص) ، فقال : إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول ، والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصله الخيال ، والرسول يأخذ عن الخيال ؛ فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ، ولو كان خاصة النبي ما ذكروه ، ولم يكن هو من جنسه ، فضلا عن أن يكون من فوقه ، فكيف وما ذكروه يحدث لآحاد المؤمنين ؟! والنبوة أمر وراء ذلك فإن ابن عربي وأمثاله ، وإن دعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية

This file was downloaded from QuranicThought.com

الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل الكلام عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة ، كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين . (٥٤)

---

(٥٤) المقصود من هذا الصلة بما سبق الكلام عليه من الفرق ما بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وكرامات الأولياء ومخاريق السحرة ، ومعجزات الأنبياء ؛ فإن الخوارق ـ كما ذكرنا ـ التي تحصل في الأرض ثلاثة أصناف :

خوارق للأنبياء : وهذه تسمى آيات وبراهين ، وآيات الأنبياء قسمان : آيات كبرى وآيات صغرى .

والثاني من الخوارق : ما يختص بالأولياء ، وهذه يقال لها كرامة ، وهذه تكون من الآيات الصغرى للأنبياء ، أو من جنس الآيات الكبرى مع اختلافها معها في الذات والقدر والصفة .

والثالث : خوارق جرت على أيدي السحرة والكهنة ، على أيدي أتباع الشياطين ، وهذه تسمى مخاريق الشياطين ، ليست من الله جل وعلا إمدادًا لهم وإنما هي من الشياطين ابتلاءً لهم .

فالأول آيات وبراهين ، والثاني كرامات ، والثالث خوارق شيطانية .

أما آيات الأنبياء ، فإنها تشبه كرامات الأولياء ولا تشبه مخاريق السحرة

. . . . . .

والشياطين والكهنة ، فربنا جل وعلا قال في وصف الآيات التي أعطاها نبيه

This file was downloaded from QuranicThought.com

ε محمدًا ، قال : [**لقد رأى من آيات ربه الكبرى**] فدل على انقسام آيات الله جل وعلا إلى آيات كبرى وما هو أدنى من ذلك ، صغرى وغيرها .

كذلك قوله جل وعلا ، في موسى عليه السلام : [**فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى**] فدل بالمفهوم على أن هناك آيات دون ذلك .

فالآيات الكبرى هذه لا يشركهم فيها حتى الأولياء ، لا يمكن أن يعطى الولي آية كبرى ؛ لأن هذه الآية الكبرى دليل نبوة النبي ، ودليل رسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، أما الآيات الصغرى ، مثل نبع الماء القليل مثلا من الأصابع ، أو مثل سماع الأخبار ، أو مثل المشي على الماء ، أو أشباه ذلك ، هذه آيات تحصل للأنبياء ، أو تكثير الطعام القليل ، تحصل للأنبياء وتحصل للأولياء ، وأما الآيات الكبرى فإنها إن حصل للولي فإنما يحصل له ما هو من جنسها لكن لا يماثلها قدرًا ولا ذاتًا ولا صفة ، مثل النار التي جعلت لإبراهيم عليه السلام ، فأنجاه الله منها ، والنار التي جعلت لأبي مسلم الخولاني في نجد ، فأنجاه الله منها ، فما بين النار والنار فرق ، وما بين الصفة والصفة فرق ، وما بين سبيل النجاة وسبيل النجاة فرق .

فإذًا بهذا التفصيل يزول إشكال من قال أنه لا كرامة للولي ، لأنه لو قلنا بالكرامات لاشتبهت خوارق الأنبياء وآياتهم بكرامات الأولياء ، كما هو مذهب المعتزلة وابن حزم وجماعة ممن أنكروا كرامات الأولياء وأنكر الخوارق .

وكذلك يبطل قول من قال : إن كل خارق يحصل لحكيم أو ولي فإنها قد تحصل للشياطين ، لكن ما يحصل للشياطين فليس معجزا إلا لمن لم يكن مثلهم ، أما من كان مثلهم فإنه لا يعجز ؛ لأنه ليس بأقداره هو وإنما بمقدرته ، يعني . . . .

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

أن الشياطين أعطته ذلك ، حصل له ذلك بالسحر ، بالكهانة ، أما الكرامة فهي من الله جل وعلا لعبده ، فالسحرة مثلا الذين جاءوا لموسى جاءوا بسحر عظيم واسترهبوا الناس ، هؤلاء سحرهم العظيم إنما كان خارقا على من لم يكن ساحرا ، أما من كان ساحرا فليس عليه بخارق .

وأما أهل الكرامات ، فإن جنس كراماتهم تختلف ما بين ولي وولي ، وما بين مكرم بهذه الكرامة وآخر ، وكل أجناسها يكون خارقا لناس زمانهم ، وقد يكون حصل لناس في الزمن الأول كرامة هي في وقتنا الحاضر ليست كرامة ، لأنها تحصل لآحاد الناس ، مثل الطيران في الهواء ، ومثل المشي على الماء ، وأشباه ذلك ، أو يكون في الشتاء القارس بملابس خفيفة ، قد يحصل هذا الآن لاختلاف الزمن .

فإذاً كرامة الولي تحصل خارقة لناس زمانهم وليس للناس جميعا أو للإنس والجن جميعا ، وإنما لناس زمانه ، يعني في أرضه ومن عنده ، ليدل ما حصل له على كرامته على الله جل وعلا .

أما خوارق الأنبياء وآياتهم وبراهينهم الكبرى فإنها خارقة لعادة الجن والإنس جميعا ، ولهذا ينبغي أن يضبط قول من قال : خارق للعادة في الكرامات أو في الخوارق أو في آيات الأنبياء أو في المعجزات .

خارق للعادة : العادة هذه عادة من ؟ فإن فسرت بأنها عادة الجن والإنس جميعا فيكون الخارق آية وبرهانا لنبي ، لأن الله جل وعلا قال ، في سورة الإسراء : **[قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا]** فجعلها معلقة بالجن والإنس جميعا .

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وأهل الكرامات يكون خارقا لعادة الناس في بلدهم وزمانهم ، وقد لا يكون خارقا بالنسبة لأناس في طرف من الأرض آخر ، مثل كونه يحضر له عنب في وقت الصيف أو في وقت الشتاء ، هذا بالنسبة لأهل مكة ليس عندهم بخارق ، لكن لو تذهب لبلد آخر قد يكون خارقا، ولهذا ينبغي أن يقيد خرق العادة بهذا .

أما السحرة والكهنة والخوارق الشيطانية فتقيد بأنها خارقة لعادة من لم يكن مثلهم ، يعني من الناس من لم يكن ساحرا ولا يدخل في ذلك من هو أعلى منهم قدرا في المعجزات والبراهين ، مثل الأنبياء .

مقصود شيخ الإسلام مما مر إثبات الكرامات ، وأن الكرامة إنما هي أعطية ولي ، وأن جنس الخوارق قد يحصل للشياطين ، وأن قول طائفة من الصوفية أو أكثر الصوفية على أن كل خارق دليل على كرامة ، أن هذا غلط .

كذلك من شاركهم في ذلك مثل الفلاسفة وأشباه الفلاسفة الذين قالوا : إن الخوارق تحصل بالرياضات ، فإذا اجتمعت القوة العلمية والتخيلية والفعلية صار للعبد الخوارق ، وأن هذه تحصل بالرياضات والجوع والسهر ، فبالعلم تحصل القوة العلمية بانكشاف المعلومات ، وبالجوع والسهر تحصل القوة التخيلية ، وصدق من قال : أنها تحصل القوة التخيلية ، كما قال الذهبي في (السير) وفي غيرها بأنهم إذا أداموا الجوع وأدمنوا السهر فإن العقل ينقلب والإدراك يختلف ، فقد يتصورون أشياء ، يتخيلون صورًا يسمونها ملائكة ، ويسمعون أصواتا من جراء اضطراب أبدانهم وعقولهم ، فيجعلونها نداءً من الملأ الأعلى ، وهي الشياطين أغوتهم أو خاطبتهم ، إلى غير ذلك .

فهذا فرقان عظيم ما بين ما يعطاه الولي من الكرامة وما يكون عند الكهنة

. . . . . .

وأولياء الشياطين من الخوارق ، أو ما يمون عند الفلاسفة من الخوارق .

This file was downloaded from QuranicThought.com

الفلاسفة يقولون : لا فرق ، فإنها تحصل ، النبوة علم وعمل ، علم قوة علمية ، وعمل قوة فعلية ، وتخيلات . هذا يحصل للفيلسوف ويحصل للنبي ، فالأنبياء إنما هم فلاسفة جاءوا لإصلاح العالم . نسأل الله جل وعلا العفو والعافية ، وعليهم من الله ما يستحقون ، معلوم أن الفرق كبير جدًا بين هذا وهذا ، لا يستوي الليل والنهار .

ونبه شيخ الإسلام على مسألة مهمة ، وهي أن المصنف لعلم قد يستخدم عبارات يتلقاها المتلقي بما عنده من معنى هذه العبارات ، والمصنف عنى بها معنى آخر ، فيصبح يردد كلام هذا المؤلف أو هذا الذي قرأ كلامه ، والمراد مختلف ، مثل قول الفلاسفة أن هذا العالم محدث ، أو قولهم في العقل ، العقل عندهم غير العقل عند العرب ، غير العقل الذي جاء في الكتاب والسنة . فالعقل في منطق اليونان وفلسفة اليونان ومن ورث فلسفتهم له معنى آخر غير العقل في النصوص .

العقل في النصوص له مراد والعقل هناك له مراد آخر ، ولهذا لما جاء أهل الكلام راموا الجميع ما بين الفلسفة والشريعة ، فظنوا أن العقل هناك هو العقل في النصوص ، فجمعوا بينها على ما ترون بما سمي علم الكلام ، فعلم الكلام خليط ما بين فهم الفلسفة وما بين فهم الشريعة ، والجامع المشترك عندهم الألفاظ التي جاءت هنا وهنا ، مثل ما نبه شيخ الإسلام .

فإذًا استعمال لفظ في معنى لم يرده من استعمله فيه هذا لا شك أنه يحدث جنايات ، وهذا من أنواع استعمال المصطلحات التي تحدث جنايات في الأمة ، كذلك لفظ المحدث ، يقول الفلاسفة مثلا : هذا العالم محدث . نحن قد نستعمل

. . . . . .

لفظ محدث ونريد به أنه مخلوق ، خلق وأحدث من غير مثال سابق ، أحدث .

This file was downloaded from QuranicThought.com

هم يريدون بكلمة محدث أنه معلول ؛ لأنه المحدث عندهم لا بد أن يكون عن علة أحدثته ، فعندهم المحدث هو المعلول . فإذا قالوا : العالم محدث ، لا يعنون أنه مخلوق ، وإنما يعنون أنه معلول لعلة سبقته ، والعلة سبقتها علة إلى أن نأتي إلى العقل الفعال ، ثم إلى العقل الأول الذي صدرت عنه العلل ومعلولات العلل .

فهذا يعطيك تحسبا في أن استعمال الألفاظ الشرعية لا بد منه ، بل هو المتعين ، وأن طالب العلم إذا احتاج استعمال ألفاظ القوم فلا بد أن يفهم المراد منها أولا ، ثم المراد منها لغة ثانيا في استعمال غيرهم ، ثم ينزلها منزلتها اللائقة بها ، أما أن يسمع لفظا ثم يستعمله بدون معرفة لأبعاده ومعنى الاستعمال الأول له ، هذا يحدث فسادا ، ويحدث خللا ، مثل الألفاظ التي تستخدم الآن محدثة ، قد يستعملها المرء ويظن أنها سليمة ولكن مراد الأول غير مراد الثاني بها ، فأنت تنشر لفظا أريد به باطل لفهمك به فهما صحيحا ، هذا ليس سليما ؛ لأن المتلقي له قد يفهمه فهم الأول أو قد ينشره في الناس الفهم الأول ، فتصبح أنت ناقل لمصطلحات الناس ، مثل لو قلنا في الناس أن الله جل وعلا ليس بجسم ، فإنه يدخل فيه من قال أن الله لا يتصف بالصفات لأن ليس بجسم هذه كلمة يراد نفيها ولم يرد إثباتها ، ولو قلنا ليس بجسم يعني كالأجسام لكان صحيحا ، لكن إطلاق هذا اللفظ يجعل هذه الكلمة وسيلة لتقرير عقائد باطلة . الألفاظ المحدثة كثيرة والمصطلحات في هذا متنوعة .

فإذًا استعمال لفظ العقل في النصوص غير العقل عند الفلاسفة ، استخدام لفظ الخارق عند أهل السنة غير الخارق عند الصوفية غير الخارق عند الفلاسفة ،

. . . . . .

This file was downloaded from QuranicThought.com

استخدام لفظ النبوة عند أهل السنة ، غير النبوة عند الفلاسفة المعاد عندنا غير المعد عند الفلاسفة ، الخطاب ، الوحي عندنا غير الوحي عندهم . فإذاً معنى كل كلمة لا بد له من استدلالات ، وبعض المعاصرين فيمن قرأنا بعض كتاباتهم لم يفهموا هذا فهما جيدا ، فأصبحوا ينقدون بعض كلام شيخ الإسلام أو كلام بعض المحققين ، يقولون بل نص فلان في كتابه الفلاني على أن العالم محدث ، وقال أنه أقر بالنبوة ، أو أن ابن سينا أقر بالمعاد ولا يعرف معنى كلمة المعاد حيث وردت ، كلمة النبوة حيث وردت ، كلمة العقل حيث وردت ، إلى آخره .

فإذاً فهم معنى كلام المتكلم هذا غير استعماله للعبارات ، وقد يستعمل عبارة لها مدلول عنده خاص ، والمدلول عندنا يختلف ، فمحاكمته على مدلولاته لا على ما عندنا ، واختلاط اللغات في العلم يسبب خللا في الفهم والتقويم والإدراك .

الله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء ، كقوله تعالى : **[وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته**

This file was downloaded from QuranicThought.com

مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين] [الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩]

وقال تعالى : **[وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن لمن يشاء ويرضى]** [النجم : ٢٦]

وقال تعالى : **[قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له]** [سبأ : ٢٢ ، ٢٣] وقال تعالى : **[وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار ولا يفترون]** [الأنبياء : ١٩ ، ٢٠]

وقد أخبر أن الملائكة جاءت إبراهيم عليه السلام في صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشرا سويا ، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ε في صورة دحية الكلبي ، وفي صورة أعرابي ، ويراهم الناس كذلك . وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو قوة **[عند ذي لعرش مكين . مطاع ثم أمين]** [التكوير : ٢٠ ، ٢١] . وأن محمدًا ε **[رآه بالأفق المبين]** [التكوير : ٢٣] ووصفه بأنه **[شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى]** [النجم : ٥ ـ ١٨]

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقد ثبت في (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ε أنه لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين ، يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى ، والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى .
ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين ، وأنه الروح القدس ، إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء ، وأنه جوهر قائم بنفسه ، ليس خيالا لنفس نبي ، كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة ، والمدعون ولاية الله وأنهم أعلم من الأنبياء .
وغاية حقيقة هؤلاء إنكار أصول الأيمان ، بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود ، كما تشترك الأناسي في مسمى الإنسان . والحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركا كليا إلا في الذهن ، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس ، ووجود السماوات ليس بعينه وجود الإنسان ، ووجود الخالق جل جلاله ليس كوجود مخلوقاته .
وحقيقة قولهم ، قول فرعون الذي عطل الصانع ، فإنه لم يكن منكرا هذا الموجود والمشهود ، لكن زعم أنه موجود بنفسه ، لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه في ذلك ، لكن زعموا بأنه هو الله ، فكانوا أضل منه ، وإن كان قوله هو أظهر فسادا منهم ، ولهذا جعلوا عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، وقالوا : لما كان فرعون في

This file was downloaded from QuranicThought.com

منصب التحكم صاحب السيف ـ وإن جاز في العرف الناموس ـ لذلك قال : أنا ربكم الأعلى ـ أي وإن كان الكل أربابا بنسبة ما ، فأنا الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم .

قالوا : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله ، أقروا له بذلك وقالوا : **[فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة]** (٥٥) ، [طه : ٧٢] .

وكان فرعون عين الحق ، ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر ، فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة ، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر ، وبملائكته وكتبه ورسله ، مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله ، وأنهم أفضل من الأنبياء وأن الأنبياء إنما يعرفون الله من مشكاتهم .

---

(٥٥) هذا الكلام واضح في استطراده لبيان معتقد غلاة المتصوفة ، مثل أصحاب وحدة الوجود ، مثل ابن عربي الطائي وأمثاله ، وهؤلاء قالوا : إن الوجود واحد ، وهذا الوجود إنما هو وجود الله جل وعلا ، وينقسم إلى جود مقصود ووجود غير مقصود ، وأن وجود الله جل وعلا هو الأصل ، وأن وجود غيره هو وجوده سبحانه ، إذ لو لم يوجد هو فصار الأمر إلى أن الوجود واحد .والوجود من حيث هو صفة لا توجد في الظاهر ، لا توجد فيما ترى خارج الأذهان إلا مضافة إلى متصف بها .

. . . . . .

مثل المعاني العامة ـ التي ذكرنا لكم فيما سبق ـ المعاني العامة لا توجد من حيث هي عامة إلا في الأذهان ، لا يوجد في الخارج شئ أسمه الكلام أو شئ أسمه

This file was downloaded from QuranicThought.com

الوجود أو شئ أسمه الحياة ، هكذا بدون موجود أو متكلم أو حي ، إنما يوجد في الرأس والذهن والتصور ، الوجود يوجد في التصور ، الحياة لكنها في خارج الأذهان في الواقع لا بد أن تضاف إلى متصف بها .

فالاشتراك في المعنى الكلي لا يعني الاشتراك في المعنى الإضافي ، فالمعنى الكلي نعم يشترك فيه كل موجود ، ولكن لكل وجود يناسبه ، وإذا تفرقت الأشياء بالوجود الذي يناسب كل شئ على حدة فإن معنى ذلك أن الأشياء تغايرت وتباينت بالذات ، مثل الإنسان والفرس يشتركان في معنى الحيوانية ، وهي الحياة المتحركة ، الحياة والحركة يقال للحي المتحرك ، يعني أن الإنسان والفرس اشتركا في هذه الصفة ، لكن الحياة والحركة التي هي الحيوانية هذه موجودة في الخارج بدون متصف بها ؟ لا . فهل يقال أن الإنسان والحيوان شئ واحد من جهة صفة الحياتية ؟

لا قائل به ، حتى أصحاب وحدة الوجود ، لكنهم يقولون من جهة صفة الوجود : نعم !! وهذا في الحقيقة راجع إلى شئ وهو أن أصحاب وحدة الوجود أخذوا هذه الأقوال من الجهمية ، الذين لا يؤمنون إلا بصفة واحدة لله جل وعلا وهي صفة الوجود ، فلما لم يصفوا الله بشيء وكانت صفة وجود المخلوق مشكلة على إثبات وجود الله جل وعلا جعلوا الخالق عين المخلوق والمخلوق عين الخالق من جهة الوجود ، حتى فرعون جعلوه رمزا و صفة من صفات وجود الله جل وعلا ؛ لأنه قال : ما علمت لكم من إله غيري ، وقال : أنا ربكم الأعلى .

. . . . . .

ومن هذا المنطلق أو من هذا المبدأ والأهل أخذه النصيرية ، وأخذه الدروز وأصحاب التناسخ والنصارى من هذا المبدأ ، في أن هذا وهذا اتحادا وكانا شيئا

This file was downloaded from QuranicThought.com

واحدا . وتفصيل الكلام على مقالهم ، كما قال شيخ الإسلام ، ليس هذا موضعه ، وإنما المقصود بيان فساد مذهبهم وعقيدتهم .

وليس هذا موضع بسط إلحاد هؤلاء ، ولكن لما كان الكلام في أولياء الله ، والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاء لولاية الله ، وهم أعظم الناس ولاية للشيطان ، نبهنا على ذلك ، ولهذا عامة كلامهم إنما هو في الحالات

This file was downloaded from QuranicThought.com

الشيطانية ، ويقولون ما قاله صاحب (الفتوحات ـ باب أرض الحقيقة) ويقولون : هي أرض الخيال .

فتعرف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي الخيال ، ومحل تصرف الشيطان ، فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي .

قال تعالى : [**ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدون عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون**] [الزخرف : ٣٦ ـ ٣٩] ، وقال تعالى : [**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فق ضل ضلالا بعيدا**] [النساء : ١١٦] إلى قوله : [**يعدهم ويمنيهم وما يعد الشيطان إلا غرورا**] [النساء : ١٢٠] ، وقال تعالى : [**وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم**] [إبراهيم : ٢٢] ، وقال تعالى : [**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برئ منكم إني أخاف الله والله شديد العقاب**] [الأنفال : ٤٨]

وقد روي عن النبي ε في الحديث الصحيح : أنه رأى جبريل يزع الملائكة [في (موطأ مالك) باب جامع الحج ، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ، أن رسول الله ε قال : ((ما رؤي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ

This file was downloaded from QuranicThought.com

منه في يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر)) ، قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ؟ قال : ((أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة)) أي يصفهم للقتال . وهو حديث مرسل .]

والشياطين إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته .

قال تعالى : **[إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا]** [الأنفال : ١٢] وقال تعالى : **[يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودا فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها]** [الأحزاب : ٩] ، وقال تعالى : **[إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها]** [التوبة : ٤٠] ، وقال تعالى : **[إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين]** [آل عمران : ١٢٤ ، ١٢٥]

وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم ، وهي جن وشياطين ، فيظنونها ملائكة ، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكوكب والأصنام .

وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام : المختار بن أبي عبيد ، الذي أخبر به النبي ε في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في (صحيحه) عن النبي ε أنه قال : ((سيكون في سقيف كذاب ومبير)) [روا مسلم : ((أن في سقيف كذابا ومبيرا)) والمبير : المهلك] ، وكان الكذاب : المختار بن أبي عبيد ، والمبير : الحجاج بن يوسف ، فقيل لابن عمر وابن عباس : إن المختار يزعم أنه ينزل إليه ، فقالا :

This file was downloaded from QuranicThought.com

صدق ، قال تعالى : **[هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم]** [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] وقال الآخر ، وقيل له إن المختار يزعم أنه يوحي إليه ، فقال : قال الله تعالى **[وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم]** [الأنعام : ١٢١] .

وهذه الأرواح الشيطانية ؛ هي الروح الذي يزعم صاحب (الفتوحات) أنه ألقي إليه ذلك الكتاب ، ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين ، وشئ معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالا بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء ، وإنما هو من الأحوال الشيطانية ، وأعرف من هؤلاء عددا ، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتي بمال مسروق ، تسرقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس أو لعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ، ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية ؛ كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، كما يوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكية) و (الفصوص) وأشباه ذلك ، يمدح الكفار ، مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم ، وينتقض الأنبياء ، كنوح وإبراهيم وموسى وهارون ، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين ، كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأمثالهما ، ويمدح المذمومين عند المسلمين ، كالحلاج ونحوه ؛ كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية .

This file was downloaded from QuranicThought.com

فإن الجنيد ـ قدس الله روحه ـ كان من أئمة الهدى ، فسُئل عن التوحيد ، فقال : التوحيد إفراد الحدوث عن القدم . فبين أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق .

وصاحب (الفصوص) أنكر هذا وقال في مخاطبته الخيالية له : يا جنيد ! هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ فخطأ الجنيد في قوله : إفراد الحدوث عند القدم ؛ لأن قوله هو : إن وجود المحدث هو عين وجود القديم ، كما قاله في(فصوصه) : ومن أسمائه الحسنى : (العلي) على من ؟ وما ثم إلا هو . وعن ماذا ؟ وما هو إلا هو ، فعُلُوه لنفسه ، وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات ، هي العلية لذاتها ، وليست إلا هو .. إلى أن قال : هو عين ما بطن ، وهو عين ما ظهر ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز ، وغير ذلك من الأسماء المحدثات .

فيقال لهذا الملحد : من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثا غيرهما ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالثا ، فالعبد يعرفه أنه عبد ، ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم ، وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطنا وظاهرا .

وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منهم ؛ وهو أحذقهم في اتحادهم ـ لما قرئ عليه (الفصوص) ـ فقيل له : القرآن يخالف (فصوصكم) ، فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد من كلامنا ، فقيل له : فإذا كان الموجود واحدا ، فلم كانت

This file was downloaded from QuranicThought.com

الزوجة حلالا والأخت حراما ؟ فقال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون ، قالوا : حرام ، فقلنا حرام عليكم .

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهرا ، فإن الوجود إذا كان واحدا ، فمن المحجوب ومن الحاجب ؟ ولهذا قال شيوخهم لمريدهم : من قال لك : إن كان في الكون سوى الله فهو كذب . فقال له مريده : فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا لآخر : هذه مظاهر ، فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هي ؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة ، وإن كانت إياها فلا فرق .

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر ، وبينا حقيقة قول كل واحد منهم ، وإن صاحب (الفصوص) يقول : المعدوم شئ ووجود الحق فاض عليهما ، فيفرق بين الوجود والثبوت . (٥٦)

---

(٥٦) هذا الكلام استطرد في بيان حال المدعين الاتحاد ووحدة الوجود ، والذي يهمك من هذا أشياء :

الأول : أن شيخ الإسلام لهذا الاستطراد وهذه البينات لحال هؤلاء الملاحدة . لغرض أن أهل الشام وأهل مصر في ذلك الوقت يعظمون أصحاب وحدة . . . . . .

الوجود ، يعظمون ابن عربي والتلمساني ، وأشباه هؤلاء ، وابن الفارض ، يعظمونهم جدا ، واشتهر عنهم أنهم يقولون بهذا الكلام ، ومع ذلك يعظمونهم ، لهذا أوجب أن يبين أن هؤلاء ليسوا من أولياء الله ، فاستطرد ليبين لك فساد عقول هؤلاء ، وأنه لا يكون أمثال هؤلاء أولياء لله جل وعلا .

This file was downloaded from QuranicThought.com

الثاني : أن هؤلاء الملاحدة والزنادقة ، كأمثال ابن عربي وأشباهه شاع في الناس أن لهم كرامات ، وأنهم يخبرون بأشياء وتكون حقا وأن الكهان من اتباعهم والمنتسبين للتصوف عندهم أحوال إيمانية ينكشف لهم بها الغيب ، وأنه يوحي إليهم ، وأنهتأتيهم معلومات ليست إلا عندهم ، فجعلوا هذه الأشياء من كراماتهم ، فبين رحمه الله فيما ذكر أن هذه الأشياء التي تنسب إليهم صحيحة ولكن ليست هي كرامة تأتيهم من الملائكة ، وإنما هي أحوال شيطانية تأتيهم من الشياطين : **[وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم]** والشيطان يتنزل على من يواليه ، ويخبره بالأشياء ويعلمه ويعطيه معلومات وربما حمله وربما طار به ، وربما سخر له بعض الأشياء بما أقدره الله عليه .

فإذاً الشأن ليس في أنه يخدم أو أنه يُدعى أن الملائكة تخدمه وتعمل له ، ولكن الشأن هل هو من أولياء الله ، موافق لشرع الله جل وعلا ، متبع للسنة أم لا ، فإذا لم يكن متبعا للسنة ويقول مثل هذه الأقوال الكفرية فنعلم قطعا أنه من أولياء الشيطان ، وأن ما قاله وافتراه وادعاه من هذه الأقوال الباطلة هي دليل على أنه شيطان من الشياطين ، وأن المؤمن لا يجوز له أن يغتر أحوال هؤلاء وأن يجعلهم من أولياء الله جل وعلا .

والثالث من أسباب إنشائه لهذا الكلام والاستطراد : أن أكثر السحرة والكهنة في أزمنة الإسلام ادعوا الصلاح وادعوا أن ما يأتيهم إنما هو من جهة

. . . . . .

الملائكة ، وهذا تسمعه عند كثير من مغفلي المسلمين وجهلتهم ، فيما يذكرون عن أخبار بعض الناس في بلد كذا وبلد كذا ، هم يقولون فلان تخبره الملائكة لأنه رجل صالح ، وهذا لا شك أنه من براثن تلك الخلفية العامة ، فإذا قيل إن فلانا تنزل عليه الملائكة ، فاعلم أن هذا من جهة أولياء الشيطان ؛ لأننا لا نعلم

This file was downloaded from QuranicThought.com

أن أحدا من الصحابة ولا من التابعين ولا من سادات المسلمين ، قيل أن الملائكة تنزل عليه فتخبره .. إلى آخره ، وإنما هي دعوى لأولئك الفسقة والفجرة أو الزنادقة فيما يروجون على الناس من كهانتهم أو سحرهم .

فالسحرة الآن يأمرون الناس بتلاوة القرآن ويتلون عليهم القرآن ثم يخلطون معه غيره ، يقولون نخبركم ، الملائكة تأتينا وتخبرنا ، وهي الشياطين ، وهم أصلا من أكذب الناس ، فكيف يصدقون في مثل هذه الأشياء .

فإذًا يبين شيخ الإسلام حال من كان في زمنه ، وهو الوجه الثاني الذي ذكرنا .

والوجه الثالث حال كل من ادعى نزول الملائكة عليه ، فإنه الحجة ، كما قال ابن عباس في حال المختار بن أبي عبيد ، قيل له : أنه يُنزل عليه ، قال : صدق فإن الشياطين تتنزل عليه ، كما قيل أنه يوحي إليه ، قال : نعم كما قال الله : [**وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم**] .

وملخص هذا الكلام أو الغرض منه ، بيان الفرقان العظيم بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأن مسألة خرق العادات ليست برهانا ليست فرقانا أن يحصل للمرء خارق للعادة ، وأن يحصل له شيء لم يحصل لغيره ، هذا ليس دليلا على صلاحه ، وليس دليلا على فساده حتى ينظر في أمره ، فإن كان من أهل الإيمان والصلاح المتابعين للحق ، فإنه يُرحب أن تكون هذه كرامة له .

وإن كان من غير أهل الإيمان بل من أهل الفسوق والبدعة والفجور ، فأن ما

. . . . . .

حصل له يعتبر خارقا شيطانيا وأحوالا شيطانية وليست بكرامة .

فإذًا هذا البحث الذي بحثه في هذا الموضع وفيما قبله ملخصه أن الأحوال والخوارق ليست برهانا ولا دلالة ، وإنما البرهان والدلالة هو ما قال الله جل وعلا : [**إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا**

This file was downloaded from QuranicThought.com

يتقون] ، والملائكة لا تتنزل إلا على الرسل أو على المؤمنين في تثبيتهم في القتال ، أما الإخبار بالمغيبات وأشباه ذلك ، فلا يكون قد يلقى في روع المرء في روع المؤمن أن هذا الأمر كذا فيكون من باب الفراسة الإيمانية التي يعطيها الله جل وعلا من يشاء من خلقه ، لكن تحديث الملائكة ويقول : سمعت الملائكة ، وقالت لي الملائكة ، هذا لا شك أنه من صنيع الشياطين . أ هـ .

والمعتزلة الذين قالوا : المعدوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه ، فإن أولئك قالوا : إن الرب خلق هذه الأشياء الثابتة في العدم وجودا ليس هو وجود الرب ، وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليهما ، فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه الدر القونوي يفرق بين المطلق والمعين ؛ لأنه كان أقرب على الفلسفة ، فلم يقر بأن المعدوم شيء ، لكن جعل الحق هو الوجود المطلق ، وصنف مفتاح غيب الجمع والوجود .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه ، فإن المطلق بشرط الإطلاق ، وهو الكلي الفعلي ، لا يكون إلا في الأذهان لا في العيان ، والمطلق لا بشرط ، وهو الكلي الطبيعي ، وإن قيل : إنه موجود في الخارج ، فلا يوجد إلى معينا ، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج ، فيلزم أن يكون وجود الرب ، إما منتفيا في الخارج ، وإما أن يكون جزءا من وجود المخلوقات ، وإما يكون عين وجود المخلوقات ، وهو يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه ؟ أم العدم يخلق الوجود ؟ أو يكون بعض الشيء خالقا لجميعه ؟ .

وهؤلاء يفرون من لفظ الحلول ؛ لأنه يقتضي حالا ومحلا ، ومن لفظ الاتحاد ؛ لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحد ، ويقولون : النصارى كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ، لو عمموا لما كفروا .

وكذلك يقولون في عباد الأصنام : إنما أخطأوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض ، فلو عبدوا الجميع لما أخطأوا عندهم ، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام .

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ، ففيه ما يلزمهم دائما من التناقض ؛ لأنه يقال لهم : فمن المخطئ ؟ لكنهم يقولون : إن الرب هو الموصوف لجميع النقائض التي يوصف بها المخلوق ، ويقولون : إن المخلوقات بوصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، ويقولون ما قاله صاحب (الفصوص) : فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية والنسب

This file was downloaded from QuranicThought.com

العدمية ، سواء كانت محمودة عرفا أو عقلا أو شرعا أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة .

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض ، فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك ، وهؤلاء يقولون : ما كان التلمساني إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل ، ويقولون : من أراد التحقيق ـ يعني تحقيقهم ـ فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبته منهم : ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم ، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع ، فيخبرون بمجازات العقول (٥٧) ، لا بمحالات العقول : ويمتنع أن يكون في إخبار الرسول ما يناقض صريح المعقول ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان ، سواء كانا عقليين أو سمعيين أو كان أحدهما عقليا والآخر سمعيا ، فكيف بمن ادعى كشفا يناقض صريح الشرع والعقل ؟ .

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب ، لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين ، وتكون من تلبيسات الشياطين (٥٨) .

---

(٥٧) مجازات العقول ، يعني ما تجيزه العقول وليس المقصود المجاز الذي يقابل الحقيقة على أصل معنى المجاز ما يجيزه الشيء ، مجاز اللغة يعني ما تجيزه اللغة ، ومجازات العقول يعني ما تجيزه العقول لا بمحالات العقول .

This file was downloaded from QuranicThought.com

(٥٨) هذا الكلام راجع إلى فهم كلام الناس في الاتحاد والحلول وتقرير هذا الباب ، وفهم كلام شيخ الإسلام ، هذا يحتاج إلى إيضاح في معنى الحلول والاتحاد .

الحلول في عرف القوم : شيئين متمايزين مختلفين في الحقيقة يحل أحدهما في الآخر مع بقاء التميز .

والاتحاد أيضا : شيئين مختلفان في الحقيقة يحد أحدهما بالآخر فيزول التميز . والحلول يبقي هذا وهذا ، لكن الصورة الظاهرة واحدة ، ولكن حل أحدهما في الآخر مثل الكأس والماء ، فالكأس إذا حل فيه الماء ، حقيقة الكأس شيء وحقيقة الماء شيء ، فصار شيئا واحدا كأس ماء ، لكن هناك تميز ، ولكن هناك تميز يمكن أن ينفصل هذا عن هذا .

لكن الاتحاد مثل السكر والماء ، الحبر والماء ، الملح والماء ، الشاي والماء ، كانا منفصلين فاتحد أحدهما بالآخر حتى صارا لا ينفك أحدهما عن الآخر ، لا يتميز أحدهما عن الآخر ، السكر لما ذاب في الماء أين السكر ؟ تقول : في الماء والماء ذاب فيه السكر أفصلهما لا ينفصلان ، ورق شاي وضع في الماء كذلك إلى آخره .

. . . . . .

هذا الفهم في تقريرها مهم في بيان ما عليه الناس في ذلك ، إذا تبين هذا في المعنى العام فالحلول نوعان ، والاتحاد أيضا نوعان .

فالحلول عام وخاص عند أهله ، والاتحاد عام وخاص عند أهله ، فالقائلون بالحلول منهم من قال حل في أشخاص معينين حل الله جل جلاله ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ حل في أشخاص معينين ، حل في عزير عند اليهود ، حل في المسيح عند النصارى ، حل في البقر عند عباد البقر ، حل في الإله الفلاني

This file was downloaded from QuranicThought.com

عندهم ، حل في الصنم ، حل في كذا وكذا .. إلى آخره ، حل في أئمة أهل البيت عند غلاة الرافضة ، حل في الحاكم بأمر الله العبيدي عند الدروز ، وهكذا فهذا حلول خاص في بعض المخلوقات ، وهناك حلول عام ، وهو قول من قال : الله حال في كل مكان ، وهذا قول المتكلمين والمعتزلة والأشاعرة وأشباههم ، الله حال في كل مكان ، في أي مكان ، هو حال لكن منفصل عنه ليست مختلطة الحقيقة متميزة .

والاتحاد نوعان أيضا : اتحاد خاص واتحاد عام ، والقائلون بالاتحاد هم غلاة المتصوفة ، هم الذين يقولون بالاتحاد ، وأما الحلول فلا يقول به غلاة المتصوفة ، وإنما يرون أن من قال بالحلول في شخص فهو كافر معين فعند أهل الوحدة ، وحدة الوجود أو الاتحاد بكل موجود ، اتحاد الله بكل موجود حتى صارت الحقيقة ، حقيقة الإله مع المخلوق غير متميز ، يقولون : كفر من كفر لادعائه عدم الاتحاد أو لادعائه الحلول في بعض المخلوقات دون ؛ لأن النصارى كفرت ؛ لأنهم قالوا : إن المسيح حل فيه الله ، والعرب كفرت ؛ لأنها قالت : الأصنام هذه يحل فيها الله جل وعلا ، واليهود كفرت ؛ لأنهم قالوا : إن الله حل في عزير .. وهكذا ، ولو أنهم عمموا ، وقالوا : حل في كل . . . . . .

شيء واتحد في كل شيء فصارت الأشياء هي عين وجود الله جل وعلا لم يكفروا ، وعندهم الاتحاد ، عند القائلين به ، نوعان :

اتحاد خاص : وهو ببعض المخلوقات .

اتحاد عام : وهو في جميع المخلوقات .

فالذين يقولون بالاتحاد العام ، هم الذين يعبر عنهم بأصحاب وحدة الوجود ، اتحاد في السماوات والأرض ، وكل شيء اتحد بها حتى صار وجود الحق جل

This file was downloaded from QuranicThought.com

وعلا ، هو عين وجود هذه المخلوقات ، وجود المخلوقات هو عين وجود الله ، حتى ما تفرق هذه عن هذه مثل السكر الذي ذاب في الماء ، صارت الحقيقة واحدة لا يمكن انفصال إحدى الحقيقتين عن الأخرى .

والذين قالوا بالاتحاد الخاص غير الاتحاد العام هؤلاء لا يقال لهم أصحاب وحدة الوجود وهم طائفة من المتصوفة .

فغلاة المتصوفة جميعا اتحادية ، لكن منهم أهل وحدة الوجود يقولون اتحد بكل موجود بحيث صار عين الوجود واحدا ومنهم من يقول بالاتحاد في بعض المخلوقات دون بعض ، ومن أعظم ما يدل على كفر هؤلاء على كفر من قال بالاتحاد العام ، وكذلك الاتحاد الخاص أن هذا القول يعني أن الكفر والفسق صار في الله جل وعلا ؛ لأن الفاسق والمجرم والقاتل والزاني وشارب الخمر والفاعل للفواحش والكاذب إلى آخره من أنواع الموبقات والكبائر ، لما كان هو عين الوجود ولا تمايز بينهما يكون لا يفرق ما بين الكاذب شخصا والكاذب اتحادا ؛ لأنها صارت حقيقة واحدة كما أننا لا نقول : الماء حلو والسكر لا طعم له ، وكما أننا لا نقول : السكر حلو والماء لا طعم له ، فأنت إذا شربت ماء أذيب فيه سكر صارت الماء والسكر حقيقة واحدة ما تستطيع أن تقول هذا . . . . . .

حلو ، وهذا مالح ، لا تستطيع أن تميز بين هذا وهذا ؛ لأنه بالاتحاد صارت الحقيقة واحدة . وهذا هو معنى الاتحاد .

فيلزم من هذا أن يكون كل شر وكل فسق وكل فواحش منسوبة لله جل وعلا ، لهذا ابن القيم لما ذكر هذه المسائل في أول النونية ، قال :

يا أمة منكوحها معبودها أين الإله وثغرة الطعان

This file was downloaded from QuranicThought.com

لا يوجد تفريق ، صار المنكوح حال فيه الإله ، يعني اتحد في الإله صارت الحقيقة واحدة ، صار الناكح هو المنكوح ، فأين الإله بين هذا وهذا ؟ لا شك أن هذا أعظم ما يكون من إهانة الرب جل وعلا وسبه وعدم قدره حق قدره سبحانه وتعالى .

هؤلاء لما قالوا بالاتحاد بالوحدة ، قالوا : أن الاتحاد العام والوحدة العامة متفاوتة بين أهلها فيكون الولي له من الاتحاد بتخصيصه ما ليس لغيره من الموجودات ، فلهذا يصبح ينظر بنظر الإله لما له من خصوصية في الاتحاد ، ويصبح يقدر بقدرة الإله لما له من خصوصية في الاتحاد .

فالاتحاد عام لكن درجات المتحد بهم مختلفة من حيث الصفات .فلهذا جعلوا للأولياء مقاما يزيد على مقام الأنبياء ؛ لأن عندهم درجة الاتحاد مختلفة فأصحاب النبوة ، الأنبياء أعطوا درجة لكن زاد عليهم فيها أصحاب الوحدة من جهة أن أولئك أُتحد بهم وجودهم هو عين وجود الله ، ولكن عند غلاة المتصوفة ، الأنبياء يحتاجون في الأخذ في السماع لكلام الله جل وعلا يحتاجون إلى واسطة فلم يكن الاتحاد بهم من جميع الصفات .

أما الأولياء ، كُمل الأولياء عندهم فأنهم الاتحاد بهم جاء في الصفات كلها ولهذا يجعلون العالم مقسما إلى قسم يتولاه الولي الفلاني ، وقسم يتولاه الولي. .

. . . . . .

الفلاني . . .إلى آخر ما عندهم في ذلك .

المقصود أن فهم هذا الكلام ، وهذه المسائل وما يدور عليها راجع إلى :

١ ـ فهم معنى الحلول والاتحاد .

٢ ـ فهم أقسام الحلول والاتحاد .

This file was downloaded from QuranicThought.com

٣ ـ أن أصحاب الوحدة ، غلاة الصوفية أصحاب الوحدة يقسمون باختلاف الصفات ، فلا يجعلون الاتحاد عاما في الصفات ، كما أن أهل الحلول لا يجعلونه متساويا في من حل بهم .

وهذا أصل مسالة تفضيل الولي على النبي عندهم ، وأن الولي له كرامات أكثر وتكشف عنه الحجب ، والنبي قد يعمل عقله لكن الولي يرى ما لا يراه غيره وحسه يكذب العقليات إلى غير ذلك من المسائل .

وغلاة الصوفية يفتخرون بهذه العقيدة ، عقيدة الحلول ، يقول ابن فارض :

لك صلاتي في المقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

يقولون : ما في الجبة إلا الله ، فهم يعترفون بهذا .

مثل ما قال شيخ الإسلام : أن رجلا من غلاتهم قال لمريده : من حدثك أن في الوجود غير الله فهو كاذب ، فقال له الغلام : من الكاذب ؟

إذا لم يكن في الوجود إلا الله من الكاذب ؟ ، ويستدلون بقوله تعالى : [**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**] ، يقولون هذا قضاء كوني في أنه لا يعبد إلا هو ، فالذي عبد الصنم عبد الله ، ما كفر بعبادته الصنم ، ممكن الرجل الصالح يعبد الصنم ولا يكفر ، ولكنه كفر باعتقاده أن الصنم غير الله جل وعلا ، يعني إذا عبد الصنم ؛ لأنه الله حل فيه فهو ما عبد إلا الله ـ نعوذ بالله منهم ومن أقولهم ـ . أ هـ .

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة قد يقدمون الأولياء على الأنبياء ، ويذكرون أن النبوة لم تنقطع ، كما يذكر عن ابن سبعين وغيره ، ويجعلون المراتب ثلاثة : يقولون : العبد يشهد أولا طاعة ومعصية ، ثم طاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية ، والشهود الأول هو الشهود الصحيح ، وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي ، وأما الشهود الثاني فيريدون به شهود القدر ، كما أن بعض هؤلاء يقول

This file was downloaded from QuranicThought.com

: أنا كافر برب يعصى **، وهذا يزعم أن المعصية ، مخالفة الإرادة التي هي المشيئة ، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ، ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب ، مخالفة أمر الله ورسوله ، كما قال تعالى : **[تلك حدود الله ومن يطع اله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين]** [النساء : ١٣ ، ١٤] وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية ، والأمر الكوني الديني .

** يقصد به يعصى في كونه ، لكن التعبير كفري ؛ لأن الله جل وعلا يُعصى في أرضه ، وهم يشهدون بالحقيقة الكونية ، ويقولون : الله غالب على أمره ، وأمر الله نافذ ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فيقولون : إذًا الله لا يعصى فوقعت المعصية بإرادة الله الكونية وأمر الله ، ولم تكن بأمر الله الشرعية ، وهذا من الألفاظ الكفرية . أهـ .

وكانت هذه المسألة قد اشتبهت على طائفة من الصوفية ، فبينها الجنيد رحمه الله لهم ، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن خالفه ضل ؛ لأنهم تكلفوا بأن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته وفي شهود هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الأول ، فبين الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة في مشيئة الله وقدرته وخلقه ، يجب الفرق بين ما يأمر به

This file was downloaded from QuranicThought.com

ويحبه ويرضاه ، وبين ما ينهى عنه ويكره ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه وأعدائه ، كما قال تعالى : [**أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون**] [القلم : ٣٥ ، ٣٦] .

وقال تعالى [**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**] [ص : ٢٨]

وقال تعالى : [**أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**] [الجاثية : ٢١] وقال تعالى : [**وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون**] [غافر : ٥٨]

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شئ وربه ومليكه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا رب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ونهى عن المعصية و، وهو لا يحب الفساد ، ولا يرض لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإن كانت واقعة بمشيئته ، فهو لا يحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم .

وأما المرتبة الثالثة : أن لا يشهد طاعة ولا معصية ، فإنه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله ، وهو في الحقيقة غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته ، وغاية العداوة لله ، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء ، وقد قال تعالى : [**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**] [المائدة : ٥١] ، ولا يتبرأ من الشرك والأوثان ، فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، قال تعالى : [**قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء**

This file was downloaded from QuranicThought.com

منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا باله وحده] [الممتحنة : ٤] ، وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين : **[أفرأيتم ما كنت تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين]** [الشعراء : ٧٥ - ٧٧] ، وقال تعالى : **[لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كان آبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه]** [المجادلة : ٢٢]

وهؤلاء قد صنف بعضهم كتبا وقصائد على مذهبه ، مثل قصيدة بن الفارض المسماة : بنظم السلوك ، يقول فيها :

لها صلواتي في المقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها ليَّ صلت
كلانا مصل واحدٌ ساجدٌ إلى ... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلَّى ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

إلى أن قال :

ما زلت إياها وإياي لم تزل ... ولا فرق بل ذاتي لذاتي صلت
إليَّ رسولاً كنت مني مرسلا ... وذاتي بآياتي عليَّ استدلت
فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن ... منادى أجابت من دعاني ولبَّت

إلى أمثال هذا الكلام ، ولهذا كان هذا القائل عند الموت ينشد :

إن كان منزلي في الحب عندكم ... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت بها زمنا ... واليوم أحسبها أضغاث أحلامي

This file was downloaded from QuranicThought.com

فإنه كان يظن أنه الله ، فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه ، تبين بطلان ما كان يظنه ، وقال تعالى : **[سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم]** [الحديد : ١] ، فجميع ما في السماوات والأرض يسبح لله ، ليس هو الله ، ثم قال تعالى : **[له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شئ قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم]** [الحديد ٢ ، ٣] .

وفي (صحيح مسلم) عن النبي ε أنه كان يقول في دعائه : ((اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شئ ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك شئ ، وأنت الباطن فليس دونك شئ ، اقض عني الدين ، وأغنني من الفقر)) .

ثم قال : **[هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير]** [الحديد : ٤] .

فذكر أن السماوات والأرض ، وفي موضع آخر **[وما بينهما]** مخلوق مسبح له ، وأخبر أنه يعلم كل شئ . (٥٩)

---

(٥٩) هذا الكلام له سابق بني عليه ، لكن خلاصة ذلك ما قاله في أوله ، حيث قال عن الذين يقولون بالوحدة يجعلون المراتب ثلاثة ، من حيث شهود الطاعات

This file was downloaded from QuranicThought.com

والمعاصي ، يقولون : العبد يشهد أولا طاعة ومعصية ، ثم يشهد طاعة بلا معصية ، ثم يشهد طاعة ولا معصية ، فعندهم أن الناس مرتبون على ذلك ، فأقل درجات الناس الذين يشهدون الطاعات والمعاصي ، ثم يطيع ولا يرى المعصية ، يعني سقطت عنه التكاليف كلها ، لا في الطاعات ولا في المعاصي ، لعدم تأثير الطاعة فيه إيمانا ولعدم تأثير المعصية فيه جحدا أو كفرانا .

وكما هو معلوم من كلام شيخ الإسلام ـ فيما سمعت ـ أن الأول هذا لا شك أنه هو الذي أمر به العباد ، أن يشهدوا الطاعة والمعصية ، وأن تسر العبد طاعته ، وأن تسوءه معصيته ، هذا هو حال الأنبياء والمرسلين ، وحال أولياء الله جل وعلا ، أما شهود الطاعة بلا معصية ، أو لا شهود طاعة ولا معصية ، هذا عند الصوفية له منشأ . ومنشأ الغلو في إثبات المشيئة الكونية القدرية ، وعدم النظر في المشيئة الكونية والإرادة الشرعية ، وذلك أن النصوص ـ كما هو معلوم لكم ـ في غير هذا الموضع قررت الفرق ما بين ما يشاءه الله جل وعلا كونا وما بين ما يريده شرعا .

فالعبد ينظر بنظرين :

ينظر إلى ما ينفذه الله جل وعلا في ملكوته كونا ، وأنه واقع بمشيئة الله جل

. . . . . .

وعلا ، الطاعة والمعصية جميعا ، كما هو قول أهل الحق في القدر ، وأن الطاعة كانت بمشيئة الله ، والمعصية كذلك كانت بمشيئة الله ، أما الشرع فنقول الإرادة الشرعية أن تفعل الطاعة ولا تفعل المعصية ، فإذا غلب على العبد شهود الأمر الكوني نظر إلى أن العباد مجبرون على الطاعات وعلى المعاصي ، فيثبت أن الله جل وعلا أجبر العباد ، ولذلك الصوفية كلهم جبرية

This file was downloaded from QuranicThought.com

ومنهم من يغلو في الجبر حتى يرى أن الإنسان لا منزلة له لشهود الإرادة الكونية ، ومنهم من يرى الطاعة دون المعصية في شهود الأمر الكوني ، يعني أن المعصية إنما وقعت لأجل الطاعة ، يعني من جهة التوبة ومن جهة الإنابة وأشباه ذلك ، فإنما يرى طاعة بلا معصية لحصول المعصية بحكمة الله جل وعلا ، فيرى إذاً أمر الله جل وعلا الكوني الخاص بالطاعات دون المعاصي ؛ لأن المعاصي غير مقصودة لذاتها ، الله أجبر على المعصية عندهم ولكن لأجل الطاعة ، هذا إذا نظر فيه المكلف منهم يقول : أنا أطيع وأن عصيت فلأجل طاعتي ، ما عصيت إلا لأجل أن أطيع ، فهو يرى أن المعصية يرتكبها ويرضى أن يكون عاصيا لرضائه بإرادة الله الكونية .

والثالث : وهو قول ملاحدتهم ، أنه لا يشهد طاعة ولا معصية غني عن شهود سوى الله جل وعلا ، فلا الطاعات لها أثر ولا المعاصي لها أثر ، وإنما الأثر فيما حصل ، لهذا الذي يزعم الوحدة في اتحاده بالله جل وعلا ، أو حلول الله جل وعلا فيه ، مثل ما سمعت من كلام ابن الفارض ، وهذا كله استطراد من شيخ الإسلام في الرد على من يزعم أنه من الأولياء وهو يفضل الأولياء على الأنبياء ، أو أنه لا يشهد طاعة ولا معصية ، أو لا يشهد معصية وإنما يشهد طاعة .

. . . . . .

كل هذه ليست من صفات أولياء ، فأولياء الله صفتهم أنهم أهل فرقان **[إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا]** وأهل التقوى هم أهل الإيمان وهم الأولياء **[ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون]** فحصل من ذلك أن أهل التقوى هم أهل ولاية الله جل وعلا ، وأهل تقوى الله هم الذين لديهم الفرقان . ولذلك سمى شيخ الإسلام كتابه هذا الفرقان بين أولياء

This file was downloaded from QuranicThought.com

الرحمن وأولياء الشيطان ، لأن العمدة في الفرق ما بين ولي الله وولي الشيطان ، هل عنده فرقان أم لا . والصوفية الغلاة منهم من يزعمون أن أولياء يصلون إلى المرتبة المتوسطة التي يكون عندهم الحال لا فرق بين الطاعة والمعصية .

فالمعصية تؤل إلى الطاعة ، والطاعة هي المقصودة ، وقد يصل إلى أنه لا فرق أصلا بين طاعة ولا معصية إذ لا طاعة ولا معصية ، وهذا استطراد فيما أصله قبل ذلك وأولياء الله جل وعلا هم المتقون المؤمنون ، هم الذين لديهم الفرقان بين الطاعة والمعصية ، يشهدوا الطاعة كونا وشرعا ، ويشهدوا المعصية كونا وشرعا ، فيرضوا بالطاعة كونا وشرعا ، ويرضى بالمعصية شرعا من جهة الحكم ، من جهة تحريمها وذمها ، ولا يرضى بوقوعها ؛ لأن وقوع المعصية كان من جهة تفريط العبد .

فإذًا نشهد الطاعة رضاء كونا وشرعا ، ونشهد المعصية بعدم الرضى بها ، بل نذم أنفسنا على المعصية ، وهذا هو صفة أولياء الله جل وعلا أما الذي ينظر إلى المعصية كلما فعل معصية قال هذه خير لي ، ويقبل على المعاصي هذه من صفات المذمومين ليس من صفات أولياء الله جل وعلا ، بل المؤمن هو الذي تسره حسنته وتسوءه سيئته ، ويكون عنده فرقان بين المحمود والمذموم .

وأما قوله : **[وهو معكم]** ، فلفظ **[مع]** لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر [هذا من أدلة أهل الحلول أن الله يكون مع الولي وما معناه أن يكون ملازما له أم يكون فيه ، واستدلوا به على أن يكون فيه ، يحل فيه] ، كقوله تعالى : **[اتقوا الله وكونوا مع الصادقين]** [التوبة : ١١٩] ، وقوله تعالى : **[محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار]** [الفتح : ١٩] ، وقوله تعالى : **[والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم]** [الأنفال : ٧٥] .

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ، فالعامة في هذه الآية وفي آية المجادلة : **[ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ةلا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم]** [المجادلة ٧] ، فافتتح الكلام بالعلم ، وختمه بالعلم ، ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه .

وأما المعيَّة الخاصة ، ففي قوله تعالى : **[إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون]** [النحل : ١٢٨] ، وقوله تعالى لموسى : **[إني معكما أسمع وأرى]** [طه : ٤٦] ، وقال تعالى : **[إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا]** [التوبة : ٤٠] ، يعني النبي ε وأبا بكر رضي الله عنه . فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين .

فلو كان المعية أنه بذاته في كل مكان ، تناقض الخبر الخاص والخبر العام ، بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك ، وقوله تعالى : **[وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله]** [الزخرف : ٤٠] .

أي هو إله من في السماوات وإله من في الأرض ، كما قال تعالى : **[وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم]** [الروم : ٢٧] ، وكذلك قوله : **[وهو الله في السماوات**

This file was downloaded from QuranicThought.com

والأرض] [الأنعام : ٣] ، كما فسره أئمة العلم ، كالإمام أحمد وغيره : أنه المعبود في السماوات والأرض .

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من خلقه ، يوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ε من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شئ ، ولا كقوله ، في شئ من صفات الكمال ، كما قال الله تعالى : **[قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد]** [الإخلاص] .

قال ابن عباس : (الصمد) : العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته ، القدير الكامل في قدرته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده . وقال بن مسعود وغيره : هو الذي لا جوف له . و(الأحد) : الذي لا نظير له .

فاسمه (الصمد) يتضمن اتصافه بصفات الكمال ، ونفي النقائض عنه ، واسمه (الأحد) يتضمن اتصافه أنه لا مثيل له .

وقد بسطنا الكلام على تفسير ذلك في هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن . (٦٠)

---

(٦٠) هذا رد على احتجاج أهل الاتحاد بآية المعية على أن الله جل وعلا متحد أو يحل ببعض خلقه ؛ لأنه ـ كما ذكرنا لكم ـ الحلول نوعان : عام وخاص ، وهذا من جملة الأدلة التي استدلوا بها وظهر لك بالبحث أن هذا ليس بدليل ، بل هو ضد ما قالوا ، وهم جهلة أصلا كيف يستدلون ؟

This file was downloaded from QuranicThought.com

ولكن أهل الباطل يبحثون عن شبهة ليتمسكوا بها ، هذه قاعدة ؛ لأن الله عز وجل وصفهم بقوله : [**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**] ، فالزيغ موجود أولا ، ثم يأتي اتباع المتشابه ، وإلا فإن المتشابه في القرآن لا يحدث زيغا ، بل الله جل وعلا ابتلى العباد به ، والزائغ يبحث عن المتشابه ليستدل به على زيفه ، وهؤلاء زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، استدلوا بآية المعية ، استدلوا على الوحدة من القرآن والسنة بأدلة كثيرة ، فمن القرآن قوله : [**قل أي شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم**] ، وكل شئ له آية تدل على أنه الواحد ، وكل شئ يشهد بأن الله جل وعلا هو الرب وحده فجعلوه هذا إلى هذا ، جعلوا الأشياء هي الله جل وعلا ، [**قل أي شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم**] .

والتفسيرات المنسوبة إلى غلاة الصوفية ، كابن عربي وغيره ، تجد أن كثيرا من الآيات التي فيها عموم الخلق أو الشهادة العامة يستدلون بها على الوحدة . كذلك من أدلتهم آية الأنعام : [**وهو الله في السماوات والأرض**] ، وكقوله تعالى [**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**] يستدلون بها على الوحدة وعلى الاتحاد العام .

. . . . . .

ولا شك أن هذا كله من اتباع المتشابه الذي يدل على أن في قلوبهم زيغ ، والحقيقة ليست هذه بمتشابه [**وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله**] ليست بمتشابه ؛ لأن دلالتها ظاهرة على المعنى ، وليست متشابهة أصلا ، وكذلك [**وهو الله في السماوات وفي الأرض**] ليست بمتشابه ، لكن هم يتبعون ما اشتبه عليهم من الاشتباه النسبي ، فيستدلون به .

This file was downloaded from QuranicThought.com

كل هذا ، نسأل الله العفو والعافية ، من آثار ترك التمسك والاستسلام للكتاب والسنة .

كتاب الفرقان لنا الآن أربعة أو خمسة دروس كلها استطراد ذهب عن الأصل ، بعد ما عرف الولي وصفات الأولياء وشروط الولي ، إلى آخره .

الآن لما أتى إلى الفرق بين ولي الله تعالى وولي الشيطان دخل إلى علوم شتى ، مثل علوم الفلاسفة ، وفي بعض المباحث الكلامية ، وذهب إلى قول الاتحادية ، سيرجع بعد ذلك إلى أصل المبحث والكلام على الكرامات ، وصفات الأولياء ، وشروط الكرامة ، إلى غير ذلك من المباحث .

وقد نبهتكم مرارا على أن شيخ الإسلام في استطراداته يشتت الذهن ، لهذا ينبغي لطالب العلم حين يقرأ كتب شيخ الإسلام ألا يسترسل مع استطراداته ، إذا أراد أن يفهم الموضوع فيفهمه أولا مختصرا عن طريق الفهرس أو تتبع الفصول ، ثم يأخذ جملة الكلام ، أي الفوائد التي فيه والاستدلالات ، فإذا فهم هذا وعرف بناء الكتاب والقاعدة على أي شئ فهم شيخ الإسلام وتصوره قبل إنشاء الكلام ، بعد ذلك لو قرأ ومرت عليه الاستطرادات ، فإنه ينساق مع الاستطرادات وينسى أصل الموضوع ، وشيخ الإسلام إذا استطرد يحصل في استطراده أنواع من العلوم والفوائد ، ولكن قد لا يكون تحريرها في هذا

. . . . . .

الموضع هو الأكمل .

فنجد أنه في موضوع لكن يكون هناك ثغرات كثيرة ما استكملها ، يأتي كما أراد أن يبحث ، يقول وقد بسطنا هذا في موضع آخر ، مما لا يكتمل مع طالب العلم فهم معنى الاستطراد من كل وجه ، فهو يستطرد لغرض يريده ، لتقرير شئ وليس لتقرير المسألة التي استطرد فيها ، لكن المسألة هذه جاءت لغرض آخر .

This file was downloaded from QuranicThought.com

فطالب العلم لا بد له أن يكون متتبع لكلام شيخ الإسلام كليا قبل أن يبحث في جزئياته ، معناه أن يتصور الكتاب قبل .

مثلا بحث في كتاب الفرقان الولي ، من هو الولي ، والدليل على وجود الأولياء ، من هم الأولياء ، وتعريف الولي وشروط الأولياء ، الإيمان ، التقوى ، تفاضل التقوى وتفاضل الإيمان ، فصل في هذا كله ، صفة الأولياء والخوارق التي تحصل لهم والكرامات ، جمعت الآن هذه العناوين ، وهي زبدة البحث ، إذا جاء استطراد في بعض كتبه ، استطرد إلى مائة صفحة ، رحمه الله تعالى ، لأنها هي يمكن كصفحة أو صفحتين عندنا ، إذا كان قد كتب الواسطية في جلسة والحموية في جلسة ، فلا غرابة أن يستطرد ، فهو بحر لا تكدره الدلاء ، رحمه الله تعالى .

لكن طالب العلم في الاستفادة منها لا بد أن ينتبه ، ومن الكلام الحسن ما قاله الشيخ عبد الرزاق عفيفي ، رحمه الله تعالى ، وسمعته منه .

يقول : إن شيخ الإسلام يأتي إلى جدار الباطل كالموج فيسقطه جميعا دفعة واحدة ، فعلاً تنظر فتراه ، لكن لا تعرف من أين بدأ .

وأما ابن القيم ، رحمه الله ، فيأخذ جدار الباطل حجرا حجرا فيكسره لك ،

. . . . . .

وهذا واقع ، ومثل ما وصف الشيخ فإنك تجد ما أجمله شيخ الإسلام ردوده ، وما استطرد فيه ، وجاءت جميعا كالموج الهائج ، تجد ابن القيم ، رحمه الله تعالى ، نسأل الله أن يرفع درجتهما في الجنة ، وأن يجعلهما مع الأنبياء والصديقين ، وأن يجزيهما خيرا عن أهل التوحيد ، فقد أبليا بلاء حسنا ، رحمهم الله تعالى .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وابن القيم حسنة من حسنات شيخ الإسلام ، ولولا الله ثم شيخ الإسلام ما راح ابن القيم ولا جاء ، مثل ما ذكر عن نفسه في النونية ، لما ذكر حالته وكونه كان متصوفا لا يفهم الحق ، حيث قال :

حتى أتاح لي الإله بفضله من ليس تجزيه يدي ولساني

This file was downloaded from QuranicThought.com